قيام الدولة الأموية الأندلسية
١٣٨ هـ / ٧٥٦ م

وصلنا بتاريخ الأندلس إلى ولاية **الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى**، وهى ولايةٌ طويلةٌ ميزتها الوحيدة أن الهدوء النسبى ساد البلاد فى أثنائها ، فلم نعد نسمع عن الخلافات العنيفة بين طوائف المسلمين من عربٍ وغير عربٍ ، ولكن وضع الأندلس كان يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء ، فقد كان يحتاج إلى حكمٍ قويٍّ نشيط ، فإن البلد خضع للمسلمين ، لكنه لم يتحول إلى بلدٍ إسلاميٍّ بعد ، فقد كانت غالبية السكان نصرانية ، ولو استمرت سياسة الأمور على هذا النحو القلق المضطرب فإن أمر المسلمين فى الأندلس كان لا بد أن يتلاشى فهو بعيدٌ بعداً شاسعاً عن قلب مملكة الإسلام ومركز الخلافة ، فكان من العسير إمداده بالعون المستمر ولو عادت الفتنة مرةً أخرى ، ولو لفترةٍ قصيرةٍ لأصبح تلافى النتيجة المحتومة مستحيلاً .

وقد أمكن تلافى هذا المصير بحادثٍ هو من قبيل المصادفات ، ولكنه كان من أسعد المصادفات فى تاريخ الإسلام ، ذلك أن قيام الدولة العباسية فى ربيع الأول ١٣٢ هـ/ يونيو ٧٤٩م اقترن بمذابحَ واسعةِ النطاق ، أنزلها العباسيون بالأمويين انتقاماً لما فعلوا بآل البيت ـ فى الظاهر ـ وتخلصاً من بقايا الأمويين وأنصارهم فى المناطق ، وقد حصد العباسيون الأمويين دون رحمةٍ ومن هؤلاء أبناء **معاوية بن هشامِ بن عبد الملك** وكانوا أربعة ذكورٍ عدا البنات . وقد قُتل الابن الأول ، فيمن قُتل من الأمويين فى دمشق عندما دخل العباسيون ، أما الثانى فقد قتل فى مذبحة « **دير الجماجم** » . وفر الثالث والرابع فقد كانا فى بعض قرى العراق عندما أقبل جند العباسيين للقضاء عليهما ففرا معاً ، وكان أولهما **عبد الرحمن بن معاويةَ بن هشامٍ** وكان فى التاسعة عشرة ، وأخٌ له صغيرٌ فى الثالثة عشرة ، واختفيا فى مكانٍ من ضفة الفرات ، ثم طلبا إلى نوتىٍّ أن يعينهما على العبور ، فخافهما هذا الرجل ودل العسكر عليهما ، ففرا على وجهيهما وألقيا بنفسيهما فى الماء ليعبرا سباحةً ، ووقف الجند على الشاطئ يدعونهما إلى العودة ،

وبعد أن أعطياهما الأمان ارتد الأخ الأصغر ليعود وحذره أخوه فلم يسمع ، فلم يكد يصل إلى الشاطئ حتى قتل ، أما عبد الرحمن فقد فرّ إلى قرية فى الشام ، وكان قد اتفق مع أختيه « أم الوليد وأم الأصبع » على أن ترسلا له مواليهما « بدراً وسالماً » فيعود إلى هذه القرية ومضى الثلاثة هاربين حتى عبرا معه ووصلوا إلى المغرب وكادوا يقعون فى يد عبد الرحمن بن حبيب لكنهم نجوا إلى ساحل المحيط عند طنجة واختفوا فى قبيلة « نفزة » وكانت أم عبد الرحمن من بنات هذه القبيلة .

وعلى بعد ٦,٠٠٠ كيلو متر من بغداد ، شعر عبد الرحمن بشىءٍ من الأمان . كانت سِنُّهُ إذ ذاك عشرين سنةً ، وكان حريًّا أن يقضى بقية عمره فى خمولٍ ، ومن موضعه هذا أخذ يتطلع إلى ما حوله رجاء أن يجد وسيلةً يخرج بها من ذلك الخمول .

وفى سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م تقريباً نجد عبد الرحمن يعيش فى قبيلة « نفزة » فى حماية شيخها ، وهناك بدأت أخبار الأندلس تصل إليه ، وكان أمرها قد صار إلى الصميل ويوسف الفهرى وكان سالمٌ مولى أخته قد حدثه عنه ، لأنه كان فى جملة عساكر موسى بن نصيرٍ . ولكن سالماً لم يحتمل خلق عبد الرحمن العنيف فعاد إلى المشرق وبعث معه بدراً الذى سيكون له نصيبٌ كبيرٌ فى إقامة صرح الدولة الأموية فى الأندلس .

وكان فى الأندلس جماعةٌ كبيرةٌ من موالى بنى أمية ، ما بين موالى خلفاءٍ كالوليد وسليمان وهشام أبناء عبد الملك ، وموالى البيت الأموى عامةً وموالى موسى بن نصيرٍ ومغيثٍ الرومىّ ومن إليهم من موالى بنى أمية ، وانضم إليها موالى القرشيين ، وقد عرفوا بموالى قريش ، فكثر عددهم وكانوا من خيرة مسلمى الأندلس ، لما لهم من معرفة بشئون الدولة والإدارة ، وكان يوسف الفهرى قد ادَّعَى ولاء أولئك الموالى جميعاً عند ذهاب أمر بنى أمية ، ووجدوا هم فى ذلك قوةً لهم ، فاندرجوا فى أنصار يوسف وقد أدرك عبد الرحمن أنه يستطيع الوصول إلى شىءٍ بفضل هؤلاء الموالى فى الأندلس .

لهذا أرسل مولاه بدراً برسالةٍ إلى زعمائهم وأهمهم ثلاثة : أبو عثمان عبيد الله ابن عثمان وعبد الله بن خالدٍ ويوسف بن بخت ـ يرجوهم فيها معاونته على الوفود إلى الأندلس للاستقرار فيها مع تهيئة ظروف حياةٍ مناسبةٍ لمثله .

ومن أول الأمر فهم الموالى أن هذا الشاب يطمح إلى ولاية الأندلس ، وكان ذلك يوافق أهواءهم فاهتموا للأمر ، وكلّموا فيه الصميل بن حاتم ، لأنهم كانوا يعرفون أن القوة فى يده . ومن الغريب أنهم لم يصارحوا به يوسف الفهرى ، والمفروض أنهم كانوا من مواليه ، وقد وعدهم الصميل خيراً .

وكان يوسف الفهرى مشغولاً إذ ذاك بأمر ثورةٍ فى سرقسطة ، قام بها اليمنيون وكان يلح على الصميل وموالى بنى أمية فى الخروج ، وهؤلاء يُسَوِّفون ، ثم خرج الجيش آخر الأمر وفى أثناء الطريق تبين موالى بنى أمية أن الصميل يحتال عليهم وأنه لا يضمر لعبد الرحمن هذا خيراً . فانصرف زعماؤهم عن الجيش واتجهوا إلى مراكز الموالى فى « ألبيرة وجيان » ، وفى الطريق قرروا أن ينفضوا أيديهم عن الصميل والقبائل المضرية وأن يعتمدوا على القبائل اليمنية الكلبية ، وكانوا موفقين فى هذه الخطوة لأن اليمنية كانوا يتوقون إلى الأخذ بثأر هزيمتهم فى « شقندة » ، وكانوا تواقين إلى التخلص من سيادة الصميل بن حاتم عليهم عن طريق يوسفَ الفهرى .

لهذا استجاب اليمنيون فى إقليم غرناطة إلى هذا النداء وتحمسوا لعبد الرحمن، على أمل أن يدركوا الرياسة معه ، وقرروا مع موالى بنى أمية استقدامه إلى الجزيرة ، وهكذا عبر عبد الرحمن فى ربيع سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٤م إلى الأندلس ونزل فى « فرضة المنكب » فى كورة غرناطة ، ومنها انتقل إلى « طرش » ، وكانت دار يوسف بن بخت شيخ جند قنسرين وأحد كبار موالى بنى أمية ، وهناك توافد عليه الموالى وأتباعهم وذاع الأمر فى الأندلس كله .

وبلغ الأمر الصميل ويوسف الفهرى فى سرقسطة ، وكانت ظروفهما سيئةً بسبب سوء تصرفهما مع الجند ، فلم يكن فى أحدٍ حماسٌ حقيقىٌ للنهوض معهما ، وأقبل الشتاء وهما فى هذا الثغر القصِىّ ومضى الناس يهوّنون عليهما أمر عبد الرحمن قائلين : إنه لا يريد إلا الاستقرار والعيش فى سلامٍ .

وفى هذه الأثناء كان معسكر عبد الرحمن فى « طرش » يحفل بالناس ، وكان أكثر الوافدين عليه المنضمين إليه من اليمنيين ، وانضمت إليهم جماعاتٌ من البربر، وكان هؤلاء يرجون أن يجدوا الراحة من القلاقل فى ظل حكمٍ جديدٍ .

وعندما أقبل الربيع بدأت بطون مضرٍ والقيسية تتوافد على الصميل ويوسفَ، وكانا قد انتقلا إلى قرطبَة ، وظهـر أن المضريين الشاميين لا يريدون أن يتنازلوا عن الرياسة التى وصلوا إليها مع الصميل بن حاتمٍ ، وإزاء ذلك شرع عبد الرحمن يمر بقواته على منازل اليمنيين لاستنهاضهم ، فـانضم إليه الكثيرون وتقدم من قرطبة وضرب معسكره على الضفـة الجنوبية للنهر ، فى حين تـزايد حجم جيش الصميل ويـوسف وتأهب الجانبـان للقاء حـاسم . ووقع ذلك اللقـاء يوم الجمعـة ١٠ ذى الحجة ١٣٨هـ / ٧٥٦م عند « المصـارة » وهى طرف قـرطبة الغـربى ، وانتهى اليوم بنصرٍ حاسمٍ لعبد الرحمن ودخل قرطبة ونزل دار الإمارة مساء ذلك اليوم ، ثم صلى بالناس وخطب على جنـد قرطبة ، ويعتبر ذلك اليوم ميلاد الدولـة الأموية فى الأندلس ، بل ميلاد عصرٍ جديدٍ فى تاريخ الغرب الإسلامى كله .

واستأمن الصميل ويوسف إلى عبـد الرحمن فأمَّنهما ثم نكثـا عليه ، وانتهى الأمر بحبس الصميل وموتـه مخنوقاً فى سجنه ، أما يـوسف الفهرى فقد تشرّد فى نواحى الأندلس حتى قُتل فى قريةٍ قريبةٍ من طليطلة .

***

فتـــوح المســـلمين
شـــمالى جبـــال البـــرت
فـى غالـة (فرنســا)

فى مفهوم العرب إلى آخر الـدولة الأموية على الأقل كانت حركـة الفتوح حركةً متصلةً لا يمكن أن تتـوقف مادامت هناك بـلادٌ لم تصل إليها رسالة الإســـلام ، فإذا ما تم فتح قطـر فلا بد من الاسترســال فيما يليه مباشرةً . هكذا رأينـا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن .

فيما يتصل بـالأندلس كـان هناك دافعٌ أكبر لكى يســـتمر العـرب فى الفتح فيما يقع شمال البرانس ، وهـو أن تلك الجبـال لم تكن حـد المملكة القـوطيـة من الشمال ، إنما كان القـوط يملكون إقليم سبتمانية وهـو يتكون من سبعـة أقسامٍ إداريـةٍ تمتد على سـاحل البحـر المتوسط مـن جبال البرانس إلى مصب الـرون ، وكانت عاصمـة هذا الإقليم مدينة « أرغون » ، أمـا ما يلى جبال البرانس فى الشمال فكانت تحتله فى الغرب دوقيـــة « أقطـانية » وعاصمتها « بردال أو بردو » ، وكان يحكمهـا إذ ذاك دوق يسمى « أود أو أودو » ، وكانت تحتل حـوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة ، وفى ناحية الشرق ، شمال سبتمانية كانت تقوم دوقيـة « برغنـدية » وتشمل بقيـــة حـوض الرون ، وكـانت مستقلةً عن مملكـة الفرنجة .

أى أن العـرب فى محاولتهم لـلانـدفاع شمالاً كـان عليهم أن يـواجهـوا أربعَ جبهاتٍ للمقـاومة : بقايـا قوات القوط فى سبتمانيـة التى تسمى أحياناً « لا جـاليا جوتيكا » ، وقوات دوقية أقطانية ، وقوات إمارة برغندية ثم قوات مملكة الفرنجة .

وكان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم «قطلونية » ودخل المسلمون برشلونـة وطركونة وجرندة المعروفـة باسم « خيرونا » . وبذلك كان شبه الجزيرة كلـه فى قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العـزيز بن موسى سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦م .

ولما تولى أمر الأندلس الحرّ بن عبد الرحمن الثقفى فى ذى الحجة سنة ٩٧هـ/ أغسطس ٧١٦م تقدم فدخل أرغون عاصمة سبتمانية ، وقام بعدد من الغارات القصيرة فتحت أبواب فرنسا الجنوبية للمسلمين .

ولكن حركة الفتح فى غالة بدأت بصورة جدية على يد السمح بن مالكٍ الخولانى ، الذى ولاّه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠ هـ/ ٧١٩م ، وكان رجلاً عظيم الإيمان والحماس ، فقاد جنده من « أرغون » إلى «طرسونة » واستولى عليها ، وتقدم فحاصر طولونة (تولوز) أولى المدائن الكبيرة فى دوقية « أقطانية » ، فأسرع الدوق « أودو » وجمع جيشاً كبيراً وتقدم نحو المسلمين ، ودارت معركةٌ عنيفةٌ بين الجانبين ، وقد صبر المسلمون صبراً كريماً حتى استشهدوا عن آخرهم ، وكان ذلك فى يوم عرفة ١٠٢هـ/ ٢١ يونية ٧٢٠م، ولم تستطع فلول القوات الإسلامية العودة إلى أرغون إلا بفضل قائدٍ ممتازٍ من طراز السمح هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وهذه أول مرةٍ نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم . تمكن من جمع فلول الجيش والعودة بنظامٍ إلى أرغون ، وهناك انتخبه الجند العربى عاملاً على الأندلس وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقى الأولى التى لم تدم إلا قليلاً .

وكان الوالى الذى خلف عبد الرحمن رجلاً من طراز كبار الفاتحين وهو عنبسة ابن سحيمٍ الكلبى ، فقد تولى من ١٠٥هـ/ ٧٢٣ م حتى شعبان ١٠٧هـ/ يناير ٧٢٥ م .

قضى عنبسة السنوات الأولى من الولاية فى تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيشٍ قادرٍ على مواصلة الفتوح فى غالة ، فلما تم له ذلك نهض سنة ١٠٦ هـ/ ٧٢٥م / ، فرقب أمر حاميتى « برشلونة وأرغون » ثم سار شمالاً فاحتل « قرقشونة » ، وعقد حلفاً مع أهل الناحية على أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم ، ثم تقدم إلى « نيمة » فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقاً مماثلاً ، ثم اتجه نحو نهر الرون فسار مع ضفته شمالاً دون أن ينفق وقتاً فى الاستيلاء على مدنٍ . فلما أدرك « أوتان » احتلها ، إذ كانت أول عواصم إقليم « بورجونيا » ، ثم أدرك حوض نهر السارون ـ أحد نهيرات اللوار الذى يلتقى بنهر الرون عند مدينة ليون ، واحتلت القوات الإسلامية « ليون وماكون وشالون » ، وهناك تفرعت الحملة فرقتين إحداهما احتلت « ديجون » والأخرى صعدت مع السارون شمالاً

حتى بلغت « صانص » على بُعْدِ ٧٠ كيلو متراً جنوبى « باريس » ، وهذه كانت أبعد نقطةٍ وصل إليها المسلمون شمالاً ، وهى تبعد نحو ٨٠٠ كيلو متر شمال جبال البرت ، وإن وصول العرب فاتحين إلى ذلك الحد ، لدليلٌ قاطعٌ على ما امتازوا به من جرأةٍ وقوةٍ وإيمانٍ تصنع المستحيلات ، ولا يقلل من هذا الفضل أنهم لم يستطيعوا البقاء عند ذلك الحد ، فالواقع أن البقاء عنده كان مستحيلاً إذا نظرنا إلى الظروف العامة التى تمت فتوح المسلمين فى « غالة » خلالها ، فإن عنبسة كان يوغل فى قلب أوروبا الغربية نفسها وكانت الشعوب الجرمانية متراصّةً يلى بعضها بعضاً ، ثم إن الفرنجة أصحاب هذه المنطقة كانوا يمرون فى فترة نهوضٍ سياسىٍّ تولاّه آل « كارل مارتل » الذين عرفوا بالكارولنجيين ليحلوا محل الميروفنجيين . وكان كارل مارتل وتسميه المراجع العربية « قارله » يجمع قوى أنصاره وينتظر الفرصة التى تسمح له بإثبات استحقاقه لتاج الملك من دون ملك الميروفنجيين الضعيف .

وأخذ عنبسة مع رجاله طريق العودة إلى الأندلس سنة ١٠٧ هـ/ ٧٢٦م محملين بالغنائم بعد أن اجتاحوا حوض الرون كله ، وتخطوا اللوار ووصلوا إلى السين . ولا نستطيع القول بأن عنبسة فتح جنوبى غالة أو حوض الرون ، لأنه فى الواقع لم يفعل شيئاً لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد ، ولكنه على أى حالٍ الفاتح المسلم الوحيد الذى وصل إلى هذا المدى فى فتوحه ، وربما جاز تشبيه حملة عنبسةَ بحملة عقبة الكبرى ، مع اختلاف الظروف طبعاً .

وكان لا بد من حملاتٍ ضخمةٍ أكثر نظاماً ليتم فتح هذه النواحى كما أتمت حملات زهير بن قيسٍ وحسان بن النعمان وموسى بن نصيرٍ عمل عقبةَ بن نافعٍ ، ولكن ظروف العرب فى المغرب والأندلس لم تكن تسمح لهم بمواصلة الفتوح بالقوة التى عهدناها فيهم ، وذلك بسبب الخلافات بين العرب أنفسهم ، ثم بينهم وبين البربر ، ثم إن حملة عنبسة أثارت مخاوف أوروبا الغربية كلها ، فقد اقتحمها العرب اقتحاماً وأوغلوا فى داخل بلادها ، دون أن يستطيع أحدٌ مقاومتهم ولقد شعر القائم بأمر مملكة الفرنجة إذ ذاك وهو شارل أو كارل بأنه لا بد أن يقوم بعملٍ حاسمٍ إذا عاد العرب مرّةً أخرى ، وبالفعل بدأ يستعد للقاءٍ حاسمٍ ، فأخذ يجمع القوات والسلاح والأزواد ، وصالح أمراء « برغندية » واتفق مع رجال «سبتمانية » ومع الدوق « أودو » ليقوموا معا بعملٍ حاسمٍ ضد المسلمين .

ومن سوء الحظ أنه وقع انشقـاقٌ فى صفوف المسلمين المقيمين فى الثغر الأعلى الأنـدلسى أى حوض الإبـرو وكان لـه أثـرٌ سيِّئٌ على سير الفتوح فيما بعـد ، فإن الدوق أودو كان قـد حالف المسلمين ، بل صاهر قائداً بربـريًّا من قوادهم يسمى «موقوسة » كـان مركزه فى الناحية الغربيـة من جبال ألبرت ، ولم يرض المسلمون عن هذا الصهر ، لأن موقوسة بدأ يأخـذ جانب أودو ورجال أقطانية ، وانتهى الأمر إلى انفصاله عن المســـلمين بمن معـــه من الرجال . وتـــذهب الروايات إلى أن عبـد الرحمن الغـافقى الـذى كان يحكم أرغـون وينظم أعمال الجهـاد اختلف مع موقوسةَ اختلافاً شديداً ، وكان عبـد الرحمن رجلاً عنيفاً بالغ الاستقامة من طراز عقبةَ بن نافعٍ ، فـاشتد مع موقوسةَ فزاده نفـوراً وانضمت إليه جماعاتٌ كثيرةٌ من البربر .

وكان عنبسة قد استشهد فى طـريق عودته إذ دهمتهم قواتٌ نصرانيةٌ كبيرةٌ فى خوانقَ جبالِ ألبرت ، وقد قُتل عنبســة فى اللقاء فى شعبان سنة ١٠٧ هـ/ ديسمبر ٧٢٥م وتولى قيادة الجند وولاية الأندلس مـن بعده عذرة بن عبد الله الفهرى الذى حكم حتى ربيع الأول ١١٠ هـ/ يونية ـ يولية ٧٢٨ م .

وقد قام عذرة بعمليات عسكريةٍ قليلـةٍ فى غالة ولكن يبدو أن الجند الإسلامى الذى كان مـركزا فى أرغون كان يقـوم بضرباتٍ سريعةٍ وغاراتٍ عنيفـةٍ فى كل جهةٍ ومثل هذه الغارات والضربات تؤتـى غنائمَ وافرةً للمحاربين أنفسهم ، ولكنها تضر بالقضية الإسلامية الكبرى ، فهى من نـاحيةٍ ترعب الناس من المسلمين ، وتلقى فى روعهم أنهم أهل غارةٍ وسلب ونهب لا غير ، ومن نـاحية أخرى فهى تفقـد الجنود طابع النظام وخواص الجدية والإيمان والبسالة الحقيقية ، ومن أسف أن عذرة بن عبد الله الفهرى لم يستطع ضبط رجاله ، فذاع اسمه فى جنوبى فرنسا كلها كرجلٍ سفّاكٍ نهّابٍ ، وتطلّع النـاس هنـاك إلى مـن يخلصـــهم من هذه الغارات الســالبة النـاهبة ، وذلك كلـه مهـد الطريق أمـام شـارل مـارتل . بينما تعاقب على ولايـة الأندلس بعد عزل عبد الرحمن الغافقى وذلك خـــلال الأعوام (١٠٥ ـ ١١٢ هـ / ٧٢٣ ـ ٧٣٠ م) سبعة ولاةٍ ، لم يقض أحدهم فيها أكثـر من شهرين مما يدل على اضطراب الأحوال .

ومن حسن الحظ أن الولايـة وقيادة الفتوح صارت فى صفر ١١٢هـــ/ أبريل

٧٣٠ إلى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، فقد استطاع بحزمه وروحه العسكرية أن يضبط جنوده ويعيدهم إلى النظام من جديد ، حقًا إنه لم يستطع استعادة موقوسةَ إلى صفوفه، ولكنه على أى حالٍ أوقف تيار تدهور الفتوح إلى غاراتٍ ، ولو أن عبد الرحمن الغافقى كان أقلّ عنفاً عما كان فى الواقع ، لاستطاع أن يصل إلى نتائج أحسن ، ولكنه كان جندياً عنيفاً بالغ الحماس لا يلتفت إلى سياسة أو كياسة مما قلّل فرص النصر الكبير أمامه .

خرج عبد الرحمن الغافقى بحملته الكبيرة فى أوائل ١١٤هـ/ ربيع ٧٣٢م وكان معه ٧٠ ألف جندى تقريباً غالبهم من البربر ، فى حين أن الروايات النصرانية تقول إنه كان يقود ٤٠٠ ألف مقاتلٍ .

ولم يحاول عبد الرحمن الغافقى أن يكسب صداقة الدوق « أود » ، بل إنه لم يعمل على إيقافه على الحياد ، وأتى عبر جبال ألبرت فى ١١٤ هـ / صيف ٧٣٢م من الممرات رأساً إلى قلب بلاد أودو ، فاضطر هذا إلى طلب العون من رجال الفرنجة ، واستولى عبد الرحمن على « طولوشة » مَرّةً أخرى ، ثم ارتد شرقاً إلى حوض الرون فأجهز على ثورةٍ قامت فى مدينة « آرل » ، وعقب ذلك عاد عبد الرحمن واتجه نحو « بردو » عاصمة أقطانية وتصدى له الدوق « أودو » فهزمه عبد الرحمن هزيمةً كبرى على ضفاف نهر الدوردونى ثم دخل المسلمون بوردو واحتلوها وأسرع « أودو » نحو شارل مارتل ، وتقدم عبد الرحمن فاحتل بواتييه بعد صراعٍ عنيفٍ وشرع يستعد للسير شمالاً نحو باريس .

وعجل شارل مارتل الذى تسميه مراجعنا « قارله » فحشد كل ما استطاع من قوةٍ للقاء المسلمين ، واستنفر الناس استنفاراً فتضخم جيشه ، وسار جنوباً للقاء العرب شاعراً أن هذه فرصته الكبرى لكى يثبت جدارته بالملك من دون الميروفنجيين .

وكان الجيش الإسلامى كبيراً ولكن ليس بالضخامة التى يصفه بها المؤرخون النصارى . وينبغى قبل أن نقصّ تفاصيل المعركة القادمة أن نلاحظ :

أولاً : أن الجيش الإسلامى رغم شجاعته وارتفاع قواه المعنوية ، كان قد بعد جدًّا عن بلاد الإسلام ، وأصبح الآن على بعد ٤٠٠ ك.م تقريباً شمال جبال ألبرت،

وجبال ألبرت تبعد ٩٠٠ ك.م عن قرطبة ، وهذه مسافاتٌ واسعةٌ جدًّا تجعل موالاة الجيوش بالمؤن والأزواد والأمداد أمراً عسيراً ، ولو أرسل عبد الرحمن الغافقى رسالة استنجادٍ إلى قرطبة فإن حاملها لا يصل فى أقل من شهرين ، فى حين أن «قارله » كان يحارب فى بلاده وبين أهله وعشيرته .

ثانيا : كانت الغالبية العظمى من المسلمين من البربر ولم تكن العلاقات بينهم وبين العرب أهل القيادة على ما ينبغى فى هذه الظروف ، ولم تكن لدى عبد الرحمن الغافقى من السياسة وبعد النظر ما يمكنه من إزالة أسباب الخلاف فى الجيش ليستطيع السيطرة الكاملة على قواته .

ثالثاً : كان الوقت خريفاً وهو موسم الأمطار الثقيلة فى هذه النواحى والمسلمون لا يستريحون للبرد والمطر ، وكانت تلك المناطق كلها غابات ، والفارس العربى لم يكن يحسِن الحرب فى الغابات ، ثم إن خيول المسلمين العربية الضامرة تأثرت دون شكٍّ بالبرد والأمطار ، ولم تعد تستطيع الحركة بنفس الخفة التى تعمل بها فى الجو الدافئ الجاف .

رابعاً: يبدو أن عبد الرحمن الغافقى كان جنديًّا عظيماً ، ولكن كانت تنقصه القدرة على وضع خطةٍ محكمةٍ للقتال كما رأينا مثلاً عند حسانَ بن النعمانِ وطارقِ بن زيادٍ ، فقد استمر عبد الرحمن فى سيره حتى لقيه الفرنجة .

وأخيراً : لدينا مسألة الغنائم الكثيرة التى كان الجيش الإسلامى يسحبها وراءه ، ويفهم من بعض الروايات أن خوف المسلمين على ضياع هذه الغنائم كان من أكبر أسباب الهزيمة .

وقد كان اللقاء على بعد ٢٠ كيلو متراً شمال « بواتييه » فى الطريق إلى « تور » وجنوبى مجرى اللّوار ، فى موضعٍ قريبٍ من طريق رومانىٍّ قديم هو المسمى « بالبلاط » ، وفى هذا الموضع قريةٌ تسمى الآن مواسيه لا باتاى Moissias la Bataille وربما كان موقعها يحدد مكان المعركة .

أما تاريخ المعركة فالرأى السائد اليوم أنها بدأت فى ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٧٣٢م/ أواخر شعبان ١١٤هـ ، واستمرت إلى ٢٠ أكتوبر أى أوائل رمضان من تلك السنة .

دارت المعركة إذن أكثر من أسبوعٍ مما يدل على أنها كانت معركةً حاميةً ، والحقّ أن كلا من الجانبين بذل أقصى وسعه فى القتال ، وصبر المسلمون صبراً طويلاً حتى تجمعت عليهم قواتٌ نصرانيةٌ من كل ناحية ، فلم يقتصر الأمر على الفرنجة بل كان هناك كثيرون من أجناسٍ جرمانيةٍ أخرى ، وآخر مراحل المعركة كان هجوماً عنيفاً على مؤخرة الجيش الإسلامى ، فانتهبت الغنائم وتزعزع نظام الجيش ودقت ثغراتٌ نفذ منها الأعداء ، وفى أثناء ذلك استشهد عبد الرحمن الغافقى بسهم أصابه ، وكان هذا نذير الهزيمة . وقد استمر القتال مع ذلك حتى هبط الليل فتحاجز الفريقان ، وانتهزت فلول المسلمين الفرصة فتسللت من مكان المعركة تحت الظلام ، فلما أصبح الفرنجة لم يجدوا للمسلمين أثراً ، ولكنهم وجدوا ذخائرَ عظيمةً فانتهبوها ولم يفكروا فى تتبع المسلمين ، فسلمت البقية الباقية منهم وعادت إلى أرغون .

وعندما بلغ الخبر إلى عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، عامل أفريقية ولّى عبد الملك بن قطنٍ الفهرى من قبله على الأندلس ، فأسرع هذا إلى أرغون ، وفى الطريق أعاد الهدوء إلى أملاك المسلمين فى جبال ألبرت وجنوب فرنسا ، وثبّت سلطان المسلمين فى سبتمانية وعقد معاهداتٍ مع نفرٍ من الرؤساء خلفوا الدوق أودو فى حكم نواحى أقطانية وتمكن فى وقت قصيرٍ من أن يتلافى الكثير من الآثار السيئة التى تخلفت عن هزيمة البلاط ، ومَن حسَن الحظ أن « كارل » شغل عن المسلمين بأعداءٍ كثيرين من أبناء جنسه فى شمال مملكته ، فأتيحت الفرصة للمسلمين ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديدٍ .

وقد تمكن عبد الملك بن قطنٍ من إعادة تنظيم القوات الإسلامية بفضل قائدٍ من قواده ، تسميه المراجع النصرانية يوسف وربما كان يوسف الفهرى . وقد فتح يوسف هذا مدن « آرل وأبنيون وفالانس وليون » وثبت حدود أملاك المسلمين هناك ، ثم أخضع إقليم « دوفينيه » الذى يمتد شرق نهر الرون ويشمل جزءاً كبيراً مما يعرف اليوم بالرافييرا الإيطالية . واشتغل بعد ذلك بإعادة سلطان المسلمين على نواحى جبال ألبرت . ونلاحظ أن المسلمين اتخذوا سياسةً جديدةً لحكم ما بيدهم من فرنسا وهى إقامة حامياتٍ قويةٍ فى المدن وتحصين قلاعها

واتخاذ هذه القلاع مراكز للحكم والحرب . هكذا كان الحال فى ليون وأبنيون التى يسميها المسلمون صخرة أبنيون وآرل وغيرها .

ثم تولى بعد ذلك عقبةُ بن الحجاج السلولى فأتم إخضاع نواحى برغندية ، وكان عقبة مجاهداً عظيماً ، فتجددت همّة المسلمين للقتال ، وأحس كارل أنه لا مفرّ له من مواجهة المسلمين مرّةً أخرى . وتقدم بالفعل بجيشٍ كبيرٍ يقوده هو وأخوه « شلدبراند » ، وسار نحو المسلمين أيضاً ملك اللومبارديين ، فاضطر المسلمون إلى إخلاء أبنيون وتراجعوا إلى أرغون وتحصنوا فيها ، وهناك ثبتوا نحو ٣٠ سنة ، فلم تسقط إلا فى سنة ١٤١ هـ/ ٧٥٩م وكان ذلك فى أيام عبد الرحمن الداخل . وقد وجد عبد الرحمن أنه لن يستطيع المحافظة على أملاك إسلاميةٍ شمال جبال ألبرت ، فأخلى هذه الأراضى واقتصر على شبه الجزيرة الإيبيرية ، وكان ذلك خطأ منه ، لأن جبال ألبرت هى مفتاح إسبانيا ، وكانت نتيجة تخليه تماماً عما يقع شمالها أن استعاد الفرنجة فيما بعد منطقة قطلونية ، فأنشأ شرلمان فيها ولاية الثغر الإسبانى « لاماركا هيسبانيكا » ، ومعنى ذلك أن شبه الجزيرة انتقص أيضاً من الشرق بعد أن انتقص من الغرب كما رأينا .

وقد بقيت للمسلمين جماعاتٌ محاربةٌ فى نواحى سبتمانية ودوفينيه ، وانسحب معظمها إلى نواحى جبال الألب الحصينة حيث اتخذوا لأنفسهم مواقع يقومون منها بأعمالٍ عسكريةٍ فيما يجاورها ، وقد وصلت أعمالهم الحربية إلى قلب سويسرا ، ولكن هذه لم تكن فتوحاً ولا أعمالاً إسلامية ، إنما هى غاراتٌ معظمُ هدفها الدفاعُ عن النفسِ والسلبُ ، وقد تلاشت هذه الجماعات شيئاً فشيئاً ، تاركةً أسماءها على بعض النواحى وبعض وديان جبال الألب الجنوبية أو الشرقية ، من أمثال « أمرو » وهو عمرو « واشمه » وهو هرثمة « وسارازان » وهو اسمٌ عامٌّ يراد به المسلمين عامةً فى هذه النواحى .

***

عصر تأسيس الدولة الأموية الأندلسية

عبد الرحمن بن معاوية الداخل ١٣٨ ـ ١٧٢ هـ/ ٧٥٦ ـ ٧٨٨ م
هشام الأول الرضى بن عبد الرحمن الداخل ١٧٢ ـ ١٨٠ هـ/ ٧٨٨ ـ ٧٩٦ م
الحكم الأول ابن هشام (الرضى) ١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م

أصبح عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل أميراً على الأندلس ، وهو لا يعرف عنه إلا القليل ، بل لم تكن علاقاته بعرب الأندلس وبربره وأهل البلاد أول الأمر متينةً ، يستطيع الاطمئنان إليها ، ولكنه كان رجلاً موهوباً جمع صفاتٍ كثيرةً : السيادة والحزم والسياسة والكياسة وبعد الهمّة وحسن التدبير رغم أن سِنّه كانت صغيرةً إذ ذاك ، ولكنه ورث من جده هشام بن عبد الملك خِصالاً أهّلته للرياسة ، فقد كان هشام بن عبد الملك من خيرة رجال العصر الأموى، وكان عصره حافلاً بالأحداث حتى يمكن أن نعتبره مدرسةً تكون فيها نفرٌ من خيرة المتأخرين من بنى أمية ، منهم : مروان بن محمد الجعدى وعبد الرحمن ابن معاوية بن هشامٍ هذا ، فبدأ يرقب أموره بهدوء ويتلقى الثورات التى قامت عليه ، فى حزمٍ وثبات ، ومضى قدماً فى تثبيت أركان إمارته التى وضع أول أحجارها وكان عليه بعد ذلك أن يجعل لها جذوراً ويقويها بدعائم .

ومن أول الأمر نجد عبد الرحمن يسير فى العمل سير من يعرف الدولة ونظامها وما ينبغى لها من قواعد ، فنجده يرتب الإدارة المركزية ، معتمداً على رجال من موالى بنى أمية ، اختارهم اختياراً حسناً مثل « تمّام بن علقمةَ ويوسفَ ابن بختٍ وبدرٍ مولى عبد الرحمن نفسه وعبد الواحد بن مغيثٍ الرومى وعبد الحميد بن غانمٍ وشهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأشجعى وعبد السلام ابن عبد الله جد بنى عبد الرؤوف وعبد الله بن وانسوس المكناسى » مولى سليمان ابن عبد الملك . وسيصبح أولئك الرجال وأبناؤهم من عهد القوة والنظام الأموى والأندلسى على طول تاريخه ، فإن الأمراء كانوا يختارون قوادهم وكبار موظفيهم من بينهم لأن معرفة الإدارة وشئون الحكم تأصّلت فى بيوتهم . وأهم بيوت أهل

الحكم هـذه التى تميـزت على غيرها ، وكثـر ظهـور النابهين مـن بين أفرادهـا فى ميادين الإدارة والقيادة وشئون المال وتـولى العمالات والوصول إلى مراتب الإدارة مرّةً بعد مـرّةٍ ، بيوت : « تمّام بن علقمةَ وعبد الواحـد بن مغيث وشهيد بن عيسى ابن شهيد وأبـو الغمر حسان بن أبى عبـــدة » ، وستنضم إليها وتتفـرع منها فى الطريـق بيوتٌ أخرى ، ولكنهـا بيوت مـوالٍ أيضاً . ومن يـدرس تاريخ بنـى أمية الأندلسية لا بد أن يدرس تاريخ هذه البيوت الموازية لها ، وأهمها : « بنو أبى عبدة وبنو عبد الرءوف وبنو شهيـدٍ » ، وأبناء هذه البيوت لهم فضلٌ عظيمٌ على بنى أمية الأندلسيين وما وصلوا إليه من نجاح .

كان عبـد الرحمن الداخل هـو الذى وضع ذلك الأسـاس ، لأنه كان فى حـاجة بـالفعل إلى رجالٍ يعتمـد عليهم فهو غـريبٌ عن البلاد ، لا يعـرف عن أهـــلها إلا القليل ، ومن حسن الحظ أن هؤلاء الموالى جميعاً تصاهروا مع أهل البلاد ، فنشأت بيوتهم أندلسية فى طبيعتهـا ، ونشأ أولادهم أندلسيين فى مزاجهم وعواطفهم ، وإن كانـوا عرباً فى روحهم وثقافـاتهم ، مسلمين أمناء فى ديانتهم . وسيسير بنـو أمية أنفسهم فى ذلك الطـريق ، سيتزوجون مـن أهل البلاد ، وينبض فى عـروقهم الدم الأندلسى ، وابتداءً من أيام هشام بن عبد الرحمن ، لا نتعجب عندما نعرف أن لغة الحديث فى القصر والشارع وشئـون الأسر والأسواق ، كانـت مزاجاً من العـربية والإسبانيـة ، بينما كانت العربية لغـة الدولة والدين والأدب والعلم والـرسميات . وقد صاحبت هذه الثنائية الثقافية الشعب الأندلسى على طول تاريخه .

قامت دولة عبد الرحمن ، على عـونٍ كبيرٍ من العرب اليمنيين والبربر البلديين ، وقد تصور اليمنيون البلـديون أن انتصار عبد الرحمن ، معناه أن الـدولة صارت دولتهم وأنهم يستطيعـون الآن أن يتصرفـوا كيـف يشـاؤون ، ويستمـرون على أسلوب الفوضى والاستخفـاف بالناس والأموال والإغـراق فى العصبيات القبلية ، التى وصلت بالأنـدلس إلى الحالة السيئة التى رأيناهـا خلال عصر الولاة . ولكنهم فـوجئوا بـأن العهد الجديـد لن يعترف بقيسيـةٍ أو يمنيـةٍ ولا يفرق بين شـاميين وبلـديين أو بـربرٍ أو أهـل البلاد ، إنهم جميعـاً أهل وطنٍ واحـدٍ ، ولا بـد لهم من الخضـوع لقـرطبـة ، وقـد أنكر اليمنيـون ذلك إنكـاراً شـديـداً واعتبروه جحـداً لفضـــلهم ، فتـــوالت ثـوراتهم على عبد الرحمن فى كل ناحيـةٍ ، وقد اعتمد فى

حربهم على مقاتلى بنى أمية ، وعلى جند الكور المجندة وعلى حشود البربر وأهل البلاد ، وكانت خطته معاجلة الثائرين قبل أن يجمعوا أمرهم ، وقد عادت هذه المبادرة على عبد الرحمن بنفعٍ كبيرٍ ، فقضى دونَ كبيرِ مشكلةٍ على ثورات اليمنيين فى الجزيرة الخضراء وإشبيليةوطليطلة وباجة .

وكانت بعض هذه الثورات خطرةً حقًّا مثل ثورة «العلاء بن مغيثٍ اليحصبى » فى باجة ، لأن هذا الرجل جمع جمعاً عظيماً من اليمنيين والفهريين وجند مصر ، ودعا لبنى العباس وكتب إليهم يطلب سِجِلاًّ بالحكم ورحّبوا هم بذلك ، ولكن عبد الرحمن قضى على الثائرين فى حزم وقوة سنة ١٤٧ هـ/ ٧٦٤م ، وقد حاول زعيمٌ يمنىٌّ آخرُ هو « سعيد اليحصبى » المعروف « بالمطرى » ، أن يثأر لقتلى ثورة العلاء بن مغيثٍ ، واستنفر اليمنيون للثورة على عبدالرحمن فى « لبلة » جنوب غرب الأندلس فقضى عليها هى الأخرى وعلى محاولةٍ مماثلةٍ فى إشبيلية .

وكانت آخر ثورةٍ خطيرةٍ واجهها عبد الرحمن هى ثورة رجلٍ بربرىٍّ يسمى « شقيًا » أو شعيًا بن عبد الواحد » ، زعم أنه من أبناء فاطمة الزهراء ، وقد قامت فى منطقة وعرةٍ هى « شنتمرية » ولم يستطع عبد الرحمن القضاء على هذا الدعى الفاطمى إلا بعد جهدٍ شديدٍ سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦م .

وقد تعرض الأندلس أيام عبد الرحمن إلى محاولة قام بها شارلمان للاستيلاء على سرقسطةفى الثغر الأعلى . ولو وفق شارلمان إلى ذلك لما كان من المستبعد أن يستطرد إلى غيرها من عواصم الأندلس . ومن حسن الحظ أن الأندلس كان مجتمعا تحت راية عبد الرحمن فى ذلك الحين ، فتمكن من النجاة من الخطر المحيق به ، ومن الأسف أن الذين لفتوا نظر شارلمان إلى الأندلس ودعوه إلى غزوه ووعدوه المعاونة ، كانوا عرباً يتزعمهم «سليمان بن يقظان الكلبى» المعروف بالأعرابى ، والى برشلونة ، « والحسين بن يحيى الأنصارى » والى سرقسطة ، وقد بلغ عطشهم للانتقام من عبد الرحمن إلى درجة أنه هان عليهم أن يعرِّضوا الإسلام والعروبة فى الأندلس للخطر ، فى سبيل أحقاد شخصية . وقد بلغ بهم الأمر أن ذهبوا للقاء شارلمان فى « بادربورن » فى ولايةٍ وستفاليا فى غرب ألمانيا الاتحادية الحالية ، واتفقوا معه على أن يعاونوه على الاستيلاء على سرقسطة .

وفى شوال ١٦١هـ/ربيع ٧٧٨م سار شارلمان نحو إسبانيا فى جيشٍ ضخمٍ ،

فعبر جبال ألبرت من الشرق أى من ناحية « نربونة » ودخلت بعض الفرق الفرنجية فى ممرٍ فى الجزء الغربى من الجبال يسمى « رنشفالة » أو « باب الشزرى » ، وكان الاتفاق أن يعاونه البشكونس من حلفاء المسلمين فى ذلك العمل ، وأن يقوم « الحسين بن يحيى الأنصارى » بتسلم سرقسطة إذا وصل إليها ، ولكن بعد أن استولى شرلمان على بنبلونة ، ورأى جمهور المسلمين من أهل الثغر الأعلى أن سليمان بن يقظان الأعرابى قد خدعهم ، وأن الأمر سينتهى بغزوٍ نصرانىٍّ أجنبىٍّ لبلادٍ إسلاميةٍ ، غيروا موقفهم وتحالفوا مع البشكونس على أولئك الغزاة ، ورفض الحسين بن يحيى الأنصارى أن يفتح أبواب سرقسطة ، فطال حصار شارلمان لها حتى أحس أنه لن يستطيع الاستيلاء عليها قبل نزول الشتاء ، فقرر العودة ، وغضب على سليمان بن يقظان الأعرابى ، واعتبره أسيراً هو وكل من كان بين يديه من رهائن العرب ، وانقلب راجعاً فى سنة ١٦١هـ/ ٧٧٨م .

وكان أسر سليمان بن يقظان ومن معه إيذاناً بانقلاب جميع مسلمى الثغر الأعلى وحلفائهم من البشكونس على شارلمان ، فقرروا الهجوم عليه عندما تتوسط قواته خوانق ممر رنشفالة الضيقة ويقول ابن الأثير(١) إن «شارلمان لما بعد عن بلاد المسلمين واطمأن ، هجم مطروح وعيشون أبناء سليمان بن يقظان الأعرابى فى أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة» . وهذه هى الإشارة العربية الوحيدة لواقعةٍ خطيرةٍ سيكون لها صدىً بعيدٌ فى الأدب الشعبى الفرنسى ، ذلك أن مؤخرة جيش شارلمان كان يقودها فارسٌ من إقليم بريطانيا ، يسمى «هر دولاند» ويعرف عادة « برولاند Roland »فانقض عليها المسلمون والبشكونس ومزقوها وقتلوا رولاند ، رغم ما أبدى هو ومن معه من بسالةٍ ، ثم وقع قتالٌ عنيفٌ انتهى بالقضاء على معظم قوات شارلمان . والتاريخ التقليدى لهذه الواقعة ، « ملحمة رولاند المشهورة » ، ومعظم حوادثها لا صلة لها بالواقع التاريخى ، لكنها ترينا تصوُّر الناس فى جنوب فرنسا للمسلمين وعقيدتهم ، وهذه الملحمة تعتبر من المعالم الحاسمة فى تكوين اللغة الفرنسية .

وبعد ذلك بسنتين سار عبد الرحمن إلى سرقسطة ، فقضى على بقايا الثائرين

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ جـ ٦ صفحة ٥ .

ومَهَّد أمورَ إقليمِها ونظمه ودخل بنبلونة عاصمة البشكونس وعاهدهم على الخضوع للمسلمين وأداء الجزية ، وكان ذلك سنة ١٦٣هـ ، ١٦٤ هـ/ ٧٨١ م .

نظرة عامة على حكم عبد الرحمن الداخل وأعماله :

وقد قضى عبد الرحمن ما بقى من حكمه فى هدوءٍ نسبىٍّ ، وانصرف إلى تثبيت دعائم دولته . ومن الطريف أنه عندما استقر أمره بعث يستدعى بقايا بنى أمية ، ليستعين بهم فى أمره فأقبل إليه الكثيرون منهم ، فعهد إليهم بمسئولياتٍ كبرى ولكنه فوجىء بحسد الكثيرين منهم له ورغبتهم فى القضاء عليه فيئس من ناحيتهم ، وهكذا تبين أن هذا الرجل العظيم يلاقى نكران الجميل وانقلاب الرجال، مما جعله بعد ذلك يقتصر على المخلصين من موالى بنى أمية ومن انضم إليه من أهل البلاد ورجال الكور المجندة وهم من العرب ، وقد أنشأ عبد الرحمن إلى جانب ذلك قوةً جديدةً من الصقالبة ، وكان أمراء المسلمين والأوربيين فى ذلك العصر يشترون أبناء الصقالبة صغاراً من بلاد نصرانية ، ويُرَبُّون فى البلاد الإسلامية تربيةً إسلاميةً عربية ، وينشأون جنداً خالصاً للإمارة ورجالها ، وقد أصبحت هذه القوة مع الزمن عنصراً أساسياً من عناصر القوة السياسية العسكرية للأندلس .

وقد توفى عبد الرحمن فى ١٠ جمادى الآخرة ١٧٢هـ/ ٢ أكتوبر ٧٨٨ م وهو فى الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حكم الأندلس ٣٣ سنةً ، كلها عملٌ متواصلٌ ومصاعبُ وأهوالٌ . فهذا الرجل الذى شاد بنفسه ملكاً ، وأنقذ بلداً ووضع أساسَ تاريخِ شعبٍ وحضارةِ أمةٍ ، لم يسترح يوماً منذ تولى أمر الأندلس فى ذى الحجة ١٣٨ هـ/ ٧٥٦م ، فقد كان البلد الذى تولى أمره ضخماً .

وقد دخل عبد الرحمن الأندلس غريباً وحيداً تقريباً ، فتمكن بذكائه ومواهبه وشجاعته وعمله المتواصل ، من أن يقيم صرح دولةٍ ، تعد من أمجد دول الإسلام ، أقامها على أسسٍ إداريةٍ وسياسيةٍ وماليةٍ متينةٍ أثبتت الأيام صلابتها . وهو من هذه الناحية يفوق معظم مُنشِئى الدول فى تاريخ الإسلام . ويزيد من قيمة عمله أن الناس الذين قُدِّر له أن يعتمد عليهم ويحكمهم قد درجوا على الفوضى والأنانية والقسوة وقصر النظر وكان الكثيرون من زعمائهم ، لا يُبالون بمصير الإسلام

والعروبة ، فى سبيل مصلحةٍ يسيرةٍ يحققونها ، أو ثأرٍ يدركونه ، أو كبرياء يرضونها . فلم يكن عبد الرحمن ليستطيع معاملة أولئك الناس باللين والمحبة والأخلاق ، فكان لا يبالى فى سبيل الدولة بأىّ شىءٍ . وقد وصفه « دوزى » بالمكيافيلية والقسوة والخبث ، ولكن دوزى ينسى أن هذه كانت أساليب كل أصحاب الأمر فى الغرب الأوربى فى ذلك العصر الذى كان الناس فيه يرفضون الخضوع للدول ونظمها . ولهذا فقد اشتد فى نقد عبد الرحمن . والحقيقة أن هذه الخلال التى لا نرضاها فى هذا الرجل ، لم يكن عنها غنىً لرجلٍ مثله فى مثل ظروفه ، وكان لا بد على أى حالٍ من القضاء على الفوضى وعواملها وإقرار النظام . وقد نجح عبد الرحمن فى ذلك ولكننا لا مندوحة لنا من أن نقرر أنه كان دائما يختار الوسيلة الأقسى والأشد ، رغبةً منه فى الخلاص من المشكلة بسرعة ، وبعد أن توالى نجاحه ، أصبح شديد الاستبداد ، لا يقبل مناقشة أحدٍ ، وقد غضب على بدرٍ مولاه بعد طول خدمته إياه وأقصاه عنه فى شبه نفيٍ بسببٍ صغيرٍ لا يستحق ، وعامل رجاله بعنفٍ وحزمٍ بالغين .

وكان عبد الرحمن يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ جَدَّه هشام بن عبد الملك ، ولكنه كان أحسنَ حظاً منه ، لأن هشامَ بن عبد الملك تولى أمر دولةٍ كانت فى سياق الموت ، أما عبد الرحمن فقد تولى دولةً ناشئةً يضم كيانها مواردَ متدفقةً بالقوة والحيوية فأقبل ينتفع بها على أحسن وجهٍ مستطاعٍ .

ومن هذه الناحية كان عبد الرحمن أُموياً صرِفاً يشبه فى كثير من خلاله مروان ابنَ الحكم وعبدَ الملكِ وابنَه ، وفى بعض الأحيان نلاحظ عنده مشابهَ من الوليد ابن عبد الملك (فى موضوع المنشآت والعمائر) وملامح من هشام بن عبد الملك (فى ناحية السياسة المالية وتدبير مصروفات الدولة) أى أنه نقل إلى الأندلس خيرة صفات بنى أمية المشارقة ، ووضع لنفسه ولمن جاء من بعده سياسةً حكيمةً لدولة سليمةِ البناء ، تقوم على أسسٍ سياسيةٍ وإداريةٍ وماليةٍ تمكّنها من مقاومة عوامل الضعف والتدهور .

وإلى جانب ذلك كان عبد الرحمن رجلاً شهماً نشيطاً ذا همَّةٍ ، وعاملاً لا يتعب ، فخلال إمارته التى امتدت ثلاثاً وثلاثين سنةً ميلادية ، لم تقعد له همَّةٌ

ولم يركن إلى الراحة إلا فى فتراتٍ قصيرةٍ جدًّا سجلها المؤرخون . ومن ذلك أن « ابن عذارى » ، يكتب فى بعض سنوات خلافة عبد الرحمن العبارة التقليدية التى تقول : « وفى هذه السنة لم تكن للأمير حركةٌ » ، وكان أحسن ما فيه عقلُه المرتَّب وطريقته المنظمة فى العمل ، فكان يدرس مشاكله فى هدوءٍ ويتلقى أخبار الثورات التى تقوم عليه بجَنانٍ ساكنٍ ، ثم يرسم خطته للقضاء على الخصم ، ثم إنه كان على الجملة حسن المعاملة لرجاله ، مكرماً لهم حافظاً لعهودهم ، وإنْ أخذ عليه سرعته إلى الغضب وميله إلى العنف مع أعدائه والبطش بهم ، ولكننا لا نقرأ فى أخباره ما تعوَّدنا أن نقرأه فى أخبار أمثاله من الغدر بالوزراء ونكبة الكتاب ومصادرة أموالهم ، وهذا لا يمنع من القول أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى الحيلة والتدبير والغدر ، كما فعل مع الصميل بن حاتم ، إذ أنه أمر بخنقه فى سجنه ، ولكن الغدر والقسوة كانت من أسس الحكم فى العصور الوسطى ، وكانت السياسة تفرض على أصحابها أخلاقاً وأفعالاً لا نرضى عنها ، وهذا يخفف من مسئولية عبد الرحمن عما يُتَّهم به من أعمال القسوة والعنف والغدر فى كتب التاريخ .

وعندما تُوفى عبد الرحمن مخلفاً العرش لابنه هشامٍ ، ترك دولةً ثابتةَ الأركان ، فلم يكن على ابنه هشامٍ إلا أن يسير فى خطوات أبيه .

وقبل أن ننتقل إلى هشام ، لا بد أن نشير إلى عناية عبد الرحمن بالإنشاء والتعمير ، ففى أيامه بدأ عمرانُ قرطبةَ ، وهو الذى أنشأ الجزء الأول من مسجدها الجامع قبالةَ قصرِ الإمارة ، وبدأ بذلك تاريخ أكبر أثرٍ معماريٍ فى تاريخ الغرب الإسلامى كُلِّيَّةً .

وعنى عبد الرحمن كذلك بقصر الإمارة ، وكان يقوم على مساحةٍ فسيحةٍ واسعةٍ قبالة المسجد ، وقد رأى عبد الرحمن أن تستعمل هذه المساحة كلها لتكون قصوراً للأمير وأهله وإدارة دولته فأنشأ قصراً خاصاً لنفسه وعدداً من القصور الصغيرة إلى جواره لنسائه وأهل بيته وأحاط هذه القصور كلها بالحدائق الجميلة وأدار عليها سوراً .

وكانت تلك المساحة تمتد حتى تقرب من ضفة نهر الوادى الكبير ، فعمد عبد الرحمن إلى إنشاء قصور الإدارة ناحية النهر ، وفتح باباً فى السور فى الشارع

بين النهر والسور ، وسمّى هذا الباب « بباب السَّدَّة » ، لأنه كان يواجه سدَّةً جعلوها فى مجرى النهر لكى يرتفع مستوى الماء ليحرك ناعورةً أو ساقيةً كبيرةً أقيمت قرب الشاطئ لرفع الماء من النهر وإيصاله إلى داخل المدينة ، وقد سمى الحى الصغير الذى أحاط بتلك الناعورة « بِمُنية الناعورة » .

وباب السَّدَّة هذا كان مفتوحاً للجمهور ، إذ أنه كان يُفضى إلى مكاتب الدولة التى كانت تزداد عدداً وموظفين مع الزمن ، وكلما مضى عددٌ من السنوات أُنشئت دواوين أخرى حتى أصبحت الجهة القبلية من قصور الإمارة مركزاً إداريًا للدولة فى قرطبة ، وإلى جانب باب السدة جلس من نسميهم بالكتاب العموميين الذين يكتبون للناس الشكاوى والرقاع التى يتقدمون بها إلى مكاتب الدولة .

وكان أولئك الكتاب من صغار طلبة العلم الذين يرتزقون من وراء هذا العمل ، وكانوا يقيمون فى ضاحية جنوبى قرطبة تسمى ضاحيةَ أو « ربضَ شقندة » ، وكان هذا الربض مسكنَ العمالِ من كل صنفٍ ، وكان بينه وبين مدينة قرطبة قنطرةٌ حجريةٌ تعرف بقنطرة الوادى وأصلها من بناء الرومان ، ولكن العرب جَدَّدوها مرّةً بعد مرّةٍ ، وكانت من نزهات الأندلسيين المشهورة لأن تلك القنطرة القائمة على النهر كانت واسعةً قائمةً على أرجل أى أعمدةٍ فى ماء النهر ، وكانت عامرةً بالحركة لأنها كانت تؤدى من ربض شقندة إلى « المحجة العظمى » وهى الشارع الرئيسى الذى يقطع قرطبة من جنوبها إلى شمالها بادئاً من قنطرة الوادى ومُنْتَهِياً إلى الباب الشمالى الأقصى الذى عُرف بباب « عبد الجبار » ، وكان من أشهرِ أبوابِ سورِ قرطبةَ .

وإلى الشمال من قرطبة وعلى بعد نحو أربعة كيلو مترات منها أنشأ عبد الرحمن لنفسه قصراً ريفيًا على مثال البوادى أى قصور البادية ، التى كان خلفاء بنى أمية فى المشرق ينشئونها فى البادية ليقضوا فيها أوقات سمرهم بعيداً عن زحمة المدن وأعين الناس .

وكان هذا القصر الذى بناه عبد الرحمن يقوم على تلٍّ مرتفعٍ يسمى « تل الرصافة » ولذلك كان القصر يسمى بقصر الرصافة ، وهو يطل من الجنوب على الحقول التى تفصل بينه وبين قرطبة ، ومن الشمال كان يطل على « فحص » أى

أرضٍ فضاءٍ واسعةٍ سُميت « بفحص السرادق » ، وفى ذلك الفحص أو الميدان الواسع اتخذ عبد الرحمن المنازل لجنده وقواده ، وكان يحرص على تربيتهم وتدريبهم تدريباً منظماً مستمراً ، وفى نهاية شتاء كل سنةٍ كان ينادى بالنفير فتأتى إلى قرطبة حشود العرب من أهل الكور المجندة ومن ينضم إليهم من «المطوعة» أى الراغبين فى الجهاد فى سبيل الله دون أجرٍ ، مكتفين بنصيبهم من الغنائم وما يكتب لهم من ثواب الجهاد . وإلى هذه القوات كانت تضاف قوات الصقالبة الذين كان عبد الرحمن يشتريهم صغاراً ويربيهم تربيةً عسكريةً دينيةً إسلاميةً ليكونوا جنداً للإمارة وخدماً لها فى شتى شئون القصر والحكم وكانوا يسمون بتسميةٍ عامةٍ هى « الصقالبة » ومعناها « السُّلاَف » أى من الأصل السُّلاَفى ، وهو أصل الروس ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا يتكونون من كل أجناس أوربا ، وكان هناك تجارٌ مخصوصون بهذا العمل ، فكانوا يشترون أولئك الغلمان من الدول القريبة التى كانت تأسرهم وتعرضهم للبيع فى أسواقٍ معروفةٍ لأولئك التجار ، وقد استمر عبد الرحمن يشترى من أولئك الصقالبة حتى صار له منهم جيشٌ عدَّته أربعون ألفاً ، كان من بينهم حَرَسُهُ الخاص وخيرة جنده . وكان العاملون فى القصر من أولئك الصقالبة يُسَمون بالفتيان وينقسمون قسمين « الفحول » و « الخصيان » ، فأما الفحول فكانوا يُستخدمون للحرب وأعمال الدولة وأما الخصيان فكانوا يخدمون داخل القصور ، وكان تجار المسلمين يشترونهم من تجار اليهود الذين تخصّصوا فى إجراء عمليات الخصى لأولئك الشبان الأسرى المساكين قبل بيعهم لمن يريد .

***

obeikandl.com

هشامُ الأوَّلُ بنُ عبدِ الرَّحمٰنِ المعروفُ بالرِّضىَّ

وخَلَّفَ عبد الرحمن ابنَه هشاماً ، ولم يكن أكبر أولاده ، ولكنه كان محبّباً إلى أهل الدولة والفقهاء ورجال القصر لدماثةٍ كانت فى خلقه ، ولهذا تخطّى أخاه سليمان ، وكان جندياً لا يهتم إلا بالجيش وأهله .

بدأ هشامٌ حكمه فى جمادى الآخرة ١٧٢ هـ / ٧٨٨م وأمه أم ولد جليقية ، وكان يُبدى ليناً وورعاً ، ولكنه كان فى الحقيقة سياسيًّا يجتذب الناس بمظهر التقىّ ، ولم يفعل شيئًا ذا بالٍ أثناء حكمه القصير ، ولكن الناس ارتاحوا له ، لأنهم كانوا قد تعبوا من عنف أبيه وسرعته فى البطش واستمراره فى الحركة والعمل ، ونستطيع أن نعتبر إمارة هشامٍ إكمالاً لإمارة عبد الرحمن .

ولم يعكر صَفو إمارةِ هشام إلا ثوراتٌ قام بها بعض اليمنيين ، وخاصةً فى إقليمَى قطلونية وسرقسطة ، ومحاولاتٌ قام بها نصارى الشمال للاتساع جنوباً ، ولكنّ قوادَ هشامٍ عرفوا كيف يوقفون ذلك التيار .

دخول مذهب مالك الأندلس :

وأهم ما حدث فى عصر هشامٍ هو دخول مذهب مالكٍ إلى الأندلس ، وكان الأندلسيون قبل ذلك على مذهب « الأوزاعى » إمام أهل الشام ، ويمتاز فقهه بالناحية العملية ، فهو يرى أن كل ما هو نافعٌ للمسلمين ويتفق مع صالح الجمهور فهو من الإسلام ما دام لا يتعارض مع أوامره ونواهيه . وهو مذهب أخذت منه المذاهب الكبرى بأطراف ، ولكنّ مالكاً يعمّمه ويجعله قاعدةً . ومن سوءِ حظِ « الأوزاعى والليثِ بن سعدٍ وطاووس » وأمثالهم من أصحاب المذاهب الفقهية الأولى التى دثرت ، أنهم لم يرزقوا تلاميذَ يُدونون مذاهبهم وينشرونها فى الآفاق ، أما مالكُ بن أنسٍ فقد كان أحسن حظاً ، فقد رُزق تلاميذَ نبهاء أمثال « عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز » ومن إليهم من منشئى المدرسة المالكية المصرية ، ثم « أسد بن الفرات وعبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون » اللذين أدخلا مذهب مالك إلى المغرب ، وعَملاً على نشره مع طائفةٍ من أجِلّاء الفقهاء .

وفى الأندلس أيضـاً كان مـذهب مالكٍ حسن الحظ ، فقـد كان مـالكٌ معاصراً لهشام بن عبد الرحمن ، معجباً به لا يكفّ عـن الثناء عليه ، وكان ذلك يبلغ هشاماً فيستريح إليه ، فلما وفد على الأنـدلس أوائل تلاميذ مالكٍ الـذين درسوا عليه ، من أمثال « الغـازى بن قيسٍ وزيادِ بن عبد الرحمن المعـروف بشبطون ، وعيسى بن دينـارٍ وسعيـدِ بن أبى هند » ، رحّـب بهم هشامٌ وجـالسهم وأذن لهم فى تـدريس مذهبِ مـالك فى المسلمين وأخذ القضاة بـالحكم به ، ثم اتخذ كبار المالكيـة قضاةً وفقهاء مشـاورين ، أى أهل شورى يستفتيهم الأمير فيما يجريه من أمـرٍ ، وشيئاً فشيئاً أصبح المذهب المالكى المذهب الرسمى فى الأندلس .

التقليد الشامى :

ومـذهب مالكٍ هـو العنصر الحضارى الـوحيد الـذى قبلته الإمـارة الأمويـة الأندلسية خارجاً عن نظم الأمـويين فى الشرق . وأهم هذه النظم العروبة المطلقة فى لغة الدواوين وأوسـاط الدرس ، فبينما كان العباسيـون فى الشرق يقبلون صوراً حضاريةً إيرانيـةً وهنديةً ، كان الأمويون فى الأندلس لا يقبلـون إلا ما هو عربىٌ . وهم لم يفعلوا ذلك بقـانونٍ سنّوه ، وإنما كان اتجاهـاً عاماً فى الحياة سـاروا فيه وتبعهم النـاس ، فعلى الـرغم من أن مسلكهم قـام فى أوروبـا ، إلا أن الحيـاة فى قصورهم سارت على قواعد مشايخ القبائل ، فكانت قصورٌ باديةٌ ، تذكّرنا ببوادى خلفاء بنى أمية الشرقيين فى الشام . ومن ذلك أن عبـد الرحمن الداخل أنشأ لنفسه قصر الرصافـة الذى أشرنا إليه . ولم يخرج حكام بنى أميـة الأندلسيين حتى أيام النـاصر عن الثرائد والعصـائد ، واعتمـدوا على رجـالٍ ذوى همّةٍ وبسالـةٍ وروحٍ عربى، وإن لم يكونوا من أرومةٍ عربيةٍ خالصةٍ ، فقد كان منهم بربر ونفر من أهل البلاد ، ولكنهم جميعـاً استعربوا لسـاناً وفكـراً وأسلوبَ حياةٍ ، وصـاروا يعدون أنفسهم عربـاً . وقد بلغ من اهتمام هشام باللغـة العربية أن جعلها لغـة الكنيسة لنصارى الأندلس ، فترجموا إليهـا الكتاب المقدس ونصوص الصلـوات ، وقد كان ذلك من أكبر العـوامل التى أسرعت بتعـرُّب أهل الأندلـس ، وتحويل هذا البلـد إلى مركز من مـراكز الحضارة العربيـة ، ويعرف ذلك كُلُّه « بالتقليـد الشامى » الذى التزمه أمراء بنى أمية الأندلسيون وخلفاؤهم حتى نهاية عصر الخلافة .

وكـان معظم الموالى الأندلسيين يعـدّون أنفسهم بين الشـاميين ، لأنهم كانـوا

موالى بنى أمية . وبنـو أمية ظلوا حتى فى الأندلس يعتـزون بأنهم شاميون ، ولهذا فقـد كانـوا يفضلـون أهل الشام على غيرهم ، وكـانـوا يتخذون فى حيـاتهم ونظم حكمهم مـا كان سـائداً فى بلاد الشـام ، وهـذا هو الـذى أعطى هذا التقليـد اسم الشامى .

وقد تُوفى هشامٌ بعد سبع سنواتٍ من حكمه ، فكانت سنُّهُ عندما مات فى صفر ١٨١هـ/ أبـريل ٧٩٦م لا تزيد عن أربعـين سنةً ، وهى سنٌّ صـغيرةٌ جداً ، ولكن بنى أمية عامةً كانوا قصار الأعمار ، وطوال الأعمار منهم فى الشرق قليلون ، أمّا فى الأنـدلس فلا نعـرف منهـم من تخطى الخامسـة والستـين ، إلا الأمير عبـد الله وعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

ويُثنِى معظم المؤرخـين على هشـام بسبب رضا الفقهـاء عليـه وقيـامهم بالدعوة له ، وتصويره فى صورة الأمير التقىّ الورع الرحيم . ولم يكن الرجل كذلك فى الحقيقة وإنما كـانت فيه قسوةٌ على أعدائه لا نجدهـا عند أمثاله ممن يوصفون بأنهم حكامٌ أتقياء ، فقد سمل عينى شاعـرٍ يُسمَّى « أبا المخشىّ عاصمَ بن زيدٍ » ، لأنه أثنى على أخيه ومنافسـه سليمان ، وقتل ولدين من أولاد موالى بنى أمية ظلماً لريبـةٍ فى نفسه ، وقـد اعتذر عن ذلك وبـذل شيئاً من العِـوض ،ولكن ذلك لا ينفى الجناية . وقد أخفى الفقهاء ذلك عن العامة ، وزعموا أن هشاماً كان يخرج فى الليل ويطوف فى المسـاجد فإذا وجـد فيها نـاساً عـاكفين على قيام الليل أعطـاهم مالاً . وربما كان يفعل ذلك فعلاً ، ولكن ذلك كان سياسةً منه وخُبثاً .

ميلاد حركة المقاومة النصرانية فى شمال شبه الجزيرة :

وقبل أن نستطرد إلى إمارة الحكم الأول بن هشام المعروف بالحكم الربضى ، نقول كلمةً يسيرةً عن ميلاد حركة المقاومة النصرانية فى شمال شبه الجزيرة .

ذكرنا كيف وصلت جيوش موسى بن نصير إلى أوفييدو Oviedo وخيحون ، وكيف اعتصمت فلول القوط ومن انضم إليهم فيما وراء جبال كنتبرية ، فى الناحية المسماة باسم أشتريس .

تذهب الروايات النصرانية إلى أنه كان من بين كبار القوط الذين لجأوا إلى هذه الناحيـة القاصيةفارسٌ يسمى « بـلاجيوس » ويسمى عادةً « بيلايـو » ، ويُسمِّيه

العرب « بـلاى » وكان من أعـوان غيطشة وأنصـار لذريق ، فلما اعتصمت بقـايا القوط فى ناحية أشتريس ، أصبح بلاى رئيسهم وصاحب الإمارة عليهم .

وقد انتشرت هـذه الفلول أول الأمـر فى النواحى المطلـة على خليج بسكاى من جليقيـة إلى أشتريس ، ولكنها انكمشت إزاء حملات المسلمين المتـوالية فى ناحيـة جبلية شرقىّ أُوفييـدو الحالية عند البلد المسمى « كـانجاس » واتخذت حصناً لها موضعـاً جبليّاً تصل فيه الجبـال الكنتبرية إلى أعـلاها عند قمم أوروبـا ، وفى هذه الناحية موضع مغارة تسمى « كوفـا دونجا » ويسميها العرب صخرة بلاى ، وقد حاول المسلمـون الاستيلاء عليهـا أيام الحرب مع عبـد الرحمن الثقفـى سنة ٩٨ هـ/ ٧١٨م ثم ارتدوا عنها استصغاراً لشأنها أو يأساً من إمكان الاستيلاء عليها، ولم تكن ذات أهمية فى ذلك الوقت على أىّ حالٍ .

وفى سنة ١١٢ هـ/ ٧٣٠ م أثناء إمارة « الهيثم بن عبيد الكلابى » بعث حاكم الثغر الأعلى « عثمان بن أبى نسعة » جيشًا إلى أشتريس للقضاء على بقية المقاومة النصرانية هناك ، وقد بذل رجال هذا الجيش جهداً كبيراً ولكنهم لم ينالوا شيئاً من بلاى وأنصاره . وتنسب الروايـات النصرانية إلى بلاى انتصاراً كبيراً على المسلمين عند « كوفـادونجا » ، وتَعْتَبِر هذا النصر نقطةَ البـدايةِ لتاريخ إسبـانيا النصرانية ، ولكن ليس لدينا مايؤيد ذلك .

وكانت هناك إمارةٌ نصرانيـةٌ أخرى صغيرةٌ فى الجزء الشرقى من بلاد كنتبرية أنشأهـا زعيمٌ يسمى « بتروس » . ثم خلفـه أميرٌ يسمى « ألفونسـو » واتخذ لقب الدوق ، ثـم تزوج ألفـونسو ابنة بـلاى وتوحـدت مملكة أشتريس التـى يسميها العرب مملكة الجلالقة .

وكان سكـان هذا الجانب الشرقى مما يقع شمالى الجبال الكنتبريـة حتى بلاد البشكونـس يُعرفون بـاسم الكنتبريين ومن هـؤلاء الكنتبريين وبقايا القـوط ومن انضم إليهم من أهل شمال إسبانيا تكونت نواة مملكة الجلالقة .

وألفونسو هذا هو منشئ المملكـة النصرانية التى ستستمر فى النمو والاتساع حتى تستـولى على الأندلـس من المسلمين ، وقد عـاونـه الحظ باشتغـال المسلمين بـالحرب الأهلية فيما بينهـم على ما فصّـلناه قبل قـدوم عبد الـرحمن الـداخل .

وحوالى منتصف القرن الثامن الميلادى كانت إمارة أشتريس تلك قد امتدت نحو الجنوب وعمرت حوض نهر المنيو واقتربت من حوض الدويرو ، واستولى ألفونسو الأول على أشترقة منتهزاً فرصة إخلاء المسلمين إياها بسبب المجاعة التى نزلت بالأندلس نتيجة الفتنة بين العرب والبربر .

وفى أثناء حكم يوسف الفهرى والصميل بن حاتم ، امتدت المملكة النصرانية على مهلٍ ، وكذلك عندما شغل عبد الرحمن الداخل بحرب الثائرين ، سقطت فى أيدى النصارى مدن هامة مثل « لكه Lugo وبرتقال Portucallies » .

وعندما استقر الوضع لعبد الرحمن ، استرجع أهم هذه المدن ، وكان ملك أشتريس إذ ذاك يسمى « فرويلا Froila » ، وهو الذى خَلَف ألفونسو الأول ، وكان قاسياً عنيفاً سفّاكاً فكرهه الناس ومالوا إلى محالفة المسلمين ، يتزعمهم فى ذلك ملك يسمى « مورجات أو مورقات » ، يقال إن أُمهُ عربيةٌ . وعلى هذا استمر الأمر حتى تولى العرش ألفونسو الأول .

وفى الشمال الغربى كذلك نشأت إمارةٌ نصرانيةٌ مستقلةٌ فى بلاد البشكونس عُرفت باسم نبرة Navarra وقاعدتها بنبلونة وإلى غربيها قامت ثلاثُ إماراتٍ صغيرة فى جبال ألبرت هى على التوالى : أرغون وشبرب ورياجورثا وقام الزعيم البشكونسى « اينيجواريستا » Inigo Arista بتوطيد قواعد إمارة نبرة Navarra فى الغرب . وفيما بين مملكة الجلالقة التى تعرف أيضا بمملكة أشتريس وبين بلاد المسلمين امتدت منطقة خلاءٌ حتى حوض نهر الدويرو ، وكان النصارى يحاولون الامتداد فيها إذا غفل المسلمون عنهم ويرتدون عنها إذا تنبهوا لهم ، وهكذا استمر الأمر حتى نهاية القرن الثامن الميلادى .

إمارة الحكم الربضى ١٨٠ ــ ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م :

تعتبر إمارة الحكم بن هشام ، أو الحكم الأول المعروف بالربضى ، نهاية عصر القلاقل التى قام بها العرب للقضاء على الإمارة الوحيدة التى بسطت سلطانها على البلاد ، وكان الكثير من زعماء عرب البلاد وبربرها لا يسلمون بقيام هذه الدولة ، ولا تزال نفوسهم تطمع إلى العودة إلى الفوضى السابقة ، ولهذا فقد كثرت الثورات فى عصر الحكم واختلفت أنواعها ، ولكنها كانت فى الغالب ثورات

اجتماعية أو إقليميةً لا فِتَناً عشائريةً أو قبائليةً يقوم بها هذا الفريق من العرب أو البربر إذ ذاك بغية خلع طاعة الإمارة والتخلص من النظام ، وقد ثبت الحكم ثباتاً يدعو إلى الإعجاب ، وإن كانت شخصية الحكم نفسه كثيرة العيوب والمتناقضات وسياسته حافلة بالأخطاء . ذلك أن الحكم تولى أمر الأندلس شاباً فى السادسة والعشرين من عمره ، وكان إلى جانبه عَمَّاه سليمان وعبد الله وغيرهم ، ممن كانوا يرون أنفسهم أحقَّ بالملك منه ، ولا يعرفون من يؤيدهم من أهل البلاد وجماعات العرب ، فأقبلوا يدبّرون عليه وينتظرون الفرصة للإيقاع به .

وكان هو نفسه شاباً ميالاً للمتع والراحات ، وقد حسب أن أباه وجده قد مهَّدا له الملك ، وما عليه إلا أن يستمتع . ونبض فيه عرق التعالى الأموى ، ونظر إلى من سواه من الناس فى غير اكتراث ، واستخف بأهل قرطبة ورجالاتهم وأهان الكثيرين منهم ، وأهمل جانب الفقهاء الذين بلغوا مكانة كبرى فى أيام أبيه هشام ، واكتفى بخدمه وحواشيه وندمائه ، وانصرف إلى اللهو والصيد والخمر ، حتى أيقظته الحوادث يقظةً هزَّت كيانه وبدلت فى حياته وأظهرت طبيعته الصلبة الجادة فتمرس بالخطوب ، وترك اللعب ونظر فى أمر نفسه ، ولم يعد له هَمٌّ إلا تثبيت ملكه وحماية مملكته . وقد اقترف فى سبيل ذلك جرائمَ كثيرةً ، فكان له بعد ذلك الندم ، فقضى أواخر سنواته فى عزلة وحسرةٍ واستغفار ، وتوفى ذات ليلة دون أن يعرِف بخبر وفاته إلا نفرٌ قليلٌ من رعيته ولم يعلن خبر وفاته إلا بعد أيامٍ .

وكان أول ما عاناه الحكمُ حرب عَمَّيْهِ سليمان وعبد الله ، وقد شقى هو بهما ، وشقيت البلاد بهما شقاء كبيراً ، لأنهما ربطا نفسيهما بنفر من الثائرين من الثغر الأعلى ، بل سعى أحدهما وهو عبد الله إلى تأليب شارلمان على الإسلام والمسلمين ، وذهب لمقابلته فى « اكس لاشابل » ، وبالفعل أرسل شارلمان جيشاً دخل الأندلس ، ولكن أبا صفوان حاكم الثغر الأعلى رده على أعقابه سنة ١٨٠ هـ/ ٧٩٧م . وبعد ذلك بقليل استسلم عمه سليمان أبو عبد الله فقد أصيب بالفالج فاستراحت البلاد من أذاه .

ولكن محاولة عبد الله وسليمان فى الثغر الأعلى كشفت لرجال شارلمان ضعف الجبهة الإسلامية من هذه الناحية ، وحفّزه أهل شمال شبه الجزيرة من النصارى على القيام بحملةٍ أكثر جديةً ، وبالفعل سارت قواتٌ فرنجيةٌ فى سنة ١٩٠ هـ/

٨٠٦ م نحو الأندلس ، فعبرت الجبال وحاصرت برشلونة ، وثبت القـــائد العربى « سعدون الرعينى » مدافعاً عن ذلك الثغر فى رباطة جأش ، وانتظر أن يصله المدد فلم يصلـه شىءٌ ، لأن الحكم كـان مشغـولاً بعمَّيـه فى جنـوب الأنـدلس . وأخيراً سقطت برشلـونة فى يد الفرنجة ، وأنشـأ شارلمان فيها ولاية ثغريـة تسمى الثغر الإسبانى « لاماركا هيسبانيكا La Marca Hispanica » ، أصبحت من ذلك الحين شوكة فى جنب المسلمين ، لأنها تطورت مع الزمـن حتى أصبحت كونتينة قطلونية التى ستتحـد مع مملكـة أرغـون ، وتستطيـع غـزو الجانب الشرقى لمملكـــة الإســـلام فى الأندلس فيما بعد .

ويـذهب نَفَرٌ من المؤرخين بهذه المنـاسبة ، إلى أن الـدولة العبـاسيـة حـالفت الدولـة الفرنجية ضـد إمارة الأندلس . وهنـاك أخبارٌ غير موثـوق فى صحتها عن مراســلات بين شارلمان وهارون الـرشيد فى هـذا المعنى ، ولدينا أخبـار سفارات وهدايا متبادلة بينهما ، ولو أن مؤرّخينا المشـارقة لا يذكرون مرّةً واحدة ، وصول سفارة فـرنجية إلى بـلاط الرشيد . وليس لـدينا شىءٌ يثبت ما تـزعمه الـروايات النصرانية ، من أن الرشيد أرسل إلى شارلمان مفاتيح بيت المقدس .

ولكن مؤرخى شارلمان يذكرون ورود سفارات إسلامية إلى بلاطه ، وبعضها يذكـر هدايا أرسلهـا الرشيد إلى شـارلمان ، منها خَيْلٌ ومنها السـاعة الدقّـــاقة المشهورة . وقد درس الموضـوع دراسة جيدة د. عبد العزيز الـدورى وخرج منها أن هذه السفـارات لم تكن رسمية ، وإنما قـامت بها جماعات من تجار المسلمين من المغاربـة فى الغالب ، حملوا الهدايـا إلى بلاط شارلمان ، وزعمـوا أنها من خليفة المسلمين لكى يحصلوا على تسهيـلات وامتيازات تجارية ، وهـذا لا يسمح لنا بأن نقول إن الـرشيد حالف ملكاً نصرانيًّـا على أمير الأندلس المسلم . لأنه ليس لـدينا عليه أدنى دليل . ثم هـو يتعارض معارضـة تامـة مع ما نعرف من خلق الـرشيد والاتجاه العام للدولة العباسية ، وهو اتجاه إسلامى لا شكَّ فيه .

التطور الاجتماعى فى الأندلس :

ومنذ أول ولاية الحكم نلاحظ ظاهـرة لا نعرفها فى الكثير من بلاد الإسلام فى العصور الـوسطى ، وهى أن طوائف الشعب فى العاصمة وكبـار المدن غير راضية

عن الحالة ، وغير مقتنعة بنصيبها الذى قدره لها أهل الحكم . ففى العراق والشام ومصر مثلاً ، نجد أن الناس ـــ ما بين مياسيرَ وأوساط وفقراء ـــ منصرفون عن السياسة وأهلها ، لا يفكرون فى القيام عليهم ، إلا إذا بلغ الإجحاف حدًّا يجاوز الاحتمال ، وفيما عدا ذلك فأهل الحكم فى سلطانهم ، وأهل المتاجر فى متاجرهم ، وأهل الزرع فى حقولهم . وهؤلاء جميعا ـ تُجَّاراً وزُرَّاعاً وصناعاً ـــ يتقاسمون نصيبهم من الشقاء والحرمان ، دون أن يفكروا فى التجمع لاتخاذ إجراءٍ عامٍّ ضد الحكومة المركزية ، وإن كانت قلوبهم مثقلة بالغضب على الحاكمين أما فى الأندلس فنجد الناس على خلاف ذلك ، فإن الأندلسيين لا يسكتون على الأذى ولا يصبرون على ما لا يرضون وقتاً طويلاً . وكانت العادة فى العصور الوسطى أن يتحمل الناس مظالم الحكام فى صبر ، على اعتبار أن الحاكم الظالم عقاب من الله لا بد من احتماله حتى يرفعه الله عن عباده . ولهذا السبب ندر أن قام شعب على حكامه لرفع الظلم ، ولكن أهل المدن فى الأندلس كانوا لا يكفّون عن الثورة على أهل الحكم إذا زاد ظلمهم وفى كل مدينة أندلسية نجد جماعة تتحدث باسم الناس وتطالب الحاكم بالعدل وتتحداه ، وفى كل هيئة أو جماعة حرفية ، نجد رؤساء يتحدثون وينتقدون ، ومن هنا كان التحدى للحكم مستمرًّا ، وكان نقد أعمال الحكام وتتبعها والتشهير بهم يتردّد فى كل مكان .

وعلى الرغم من ذكاء بنى أمية وإدراكهم السياسى ، نلاحظ أن فهمهم لهذه الناحية فى شعبهم كان بطيئًا وجزئيًّا على العموم ، واستمروا يحاولون الحكم بأساليب الشرق وهى القهر والعنف ، فطال النزاع بينهم وبين رعاياهم ، وخسر الجانبان كثيراً ، وفى النهاية كانت خسارة الأندلس الإسلامى عظيمة .

وقد كان الشعب الأندلسى فى طريقه إلى التكوُّن فى ذلك الحين ، وكانت العملية عسيرة تحتاج إلى وقت ، وكانت لا بد أن تلاقى صعوبات ، وتتغلب على عوائق . وقد مرت الشعوب الأوربية كلها فى مثل هذه الأدوار ، ولكن مؤرّخينا لم يلاحظوا هذا التطور أبداً ولم يفهموه وأساءوا الحكم عليه .

وكان الشعب مُكَوَّناً من أقلية عربية ، أو تعد نفسها عربية ، متمثلة فى البيت الحاكم ، وعَدَدٍ من الأسر فى العاصمة والمدن والأرياف . وجماعات منتسبة إليها وتتمسك بأصولها العربية كثيرة وقوية ، لأنها ترى فى ذلك شارة شرف وامتياز .

وقد سبق أن ذكرنا أن أولئك العرب كانوا فى الحقيقة مولَّدين ، فكلّ أمهاتهم إسبانيات من جليقية ، أو من بلاد البشكونس أو صقلبياتٌ ، وإذا تزوج أحدهم ابنة عربىٍّ من الأندلس ، وجدنا أن أم هذه العربية غير عربية ، أى أنها كانت فى الحقيقة مولّدة ، وهذا لا يقدح فى عروبة هذه البيوت ، لأن أفرادها كانوا يحسون أنهم عربٌ ، ويتصرفون على أنهم عربٌ خلصاء ، ويجيدون الفصحى ويحفظون أشعارها ويفخرون بأصولهم العربية ، وهذا هو المهم ، لأن الفيصل فى هذه الموضوعات هو إحساس الإنسان الذى يحدد موقفه ويملى عليه تصرفاته ، فما دام الرجل يحس أنه عربى ويجد ذلك شرفاً ويربط نفسه بنسب عربى ، ويفخر بأمجاد العرب ويحسب نفسه من أمة العرب فهو عربىٌّ ، وإن كانت أمه غير عربيةٍ.

جماعة موالى بنى أمية :

ويدخل فى هذه الطائفة جماعات الموالى ، فهؤلاء جميعاً كانوا يحسبون أنفسهم عرباً ، ويدعون أروماتٍ عربيةً يقتبسونها من أصول سادتهم .فهذا من لخم وذاك من جذام أو من أسد أو مضر ، وحتى الذين كانوا من أصول إسبانيةٍ منهم ، ادّعوا أصولاً عربيةً مع الزمن وهذا مهم جدًّا ، فما داموا يفخرون بأنهم عرب ، فهم عرب ، وإن كانت أمهاتهم إسبانيات .

وسواء صدقت هذه الأنساب أم لم تصدق ، فإنها كانت عاملاً أساسياً وفعالاً فى حياة أولئك الموالى ، فهم جميعاً يدينون ويتصرفون على أنهم عرب ممتازون عن غيرهم ولهم حق السيادة والحكم .

وكان هؤلاء المولَّدون ، وهم أبناء الإسبان الذين أسلموا كذلك وأبناء الزيجات العربية الإسبانية من عامة الناس ، وكانت أعدادُ من دخلَ الأندلسَ من عامّةِ العربِ كبيرةً ، وخاصةً من اليمنيين وأبناء القبائل المعدودة يمنيةً ، مثل « كلب وخولان ومذحج ومدلج وخثعم » ، وهؤلاء كانوا فى العادة يندرجون فى غمار الناس فى المدن والأرياف ، ويعملون بالزراعة والتجارة والصناعة ، ويتزوجون إسبانياتٍ ويخرج أولادهم أندلسيين من أصولٍ عربيةٍ ، ولكن طابع الأندلسية غلب عليهم . فهم أندلسيون وحسب . كذلك نشأ أولاد العرب بالشام شاميين وفى مصر مصريين وفى خراسان خراسانيين وهكذا .

ويدخل ـ فى هـؤلاء الموالى ـ القضاعيون الذين هاجـروا إلى الأندلس ، وكانت أعدادهم غفيرةً ، وقضـاعة ليست فى الشام أو اليمن ، وإنما هى شعبٌ عـربىٌ قائمٌ بذاته ، كما يقول ابن حزم .

بقية تكوين شعب الأندلس :

وانضم إلى هـؤلاء مع الزمن البربـر الذين دخلـوا الأندلس فى جماعـاتٍ كبيرةٍ واستعربـوا واتخذوا أنساباً عـربيةً ليرتفع شأنهم بين الناس ، فهـؤلاء أيضاً نشأ أولادهم مولَّدين أندلسيين .

ومن هـذه الجماعات كلهـا نشأت جماعات الشعب الأنـدلسى العربى الـذى نعرفه ، وكان الإسبـانى النصرانى إذا أسلم اتخذ اسماً عربيّاً وسمى « بالأسلمى » أو « المسلمى » ، ثم ينشأ أولادهم أنـدلسيين مستعربين ، ثم يصبحون مـع الزمن أندلسيين عرباً ويندرجون فى غمار كتلة الشعب الأندلسى العربى الذى كان يكوِّن الغالبية العظمى من السكان .

وكان هناك المستعربون وهم الإسبـان الذين ظلوا نصارى على دينهم ولكنهم استعـربوا لسـاناً وأسلـوب حياة ، وكـانوا غـالبية السكـان أول الأمر ثم أخـذت أعدادهم تتناقص مع الزمن .

هذه الأجناس كانت تتجاور وتتعايش وتتكامل ، فأما العرب ومن انضم إليهم من الموالى فقد احتفظوا لأنفسهم بمكان اجتماعـىٍّ رفيعٍ واختصوا أنفسهم بمراكز الريـاسة والصدارة، فأبغضتهم الطوائف الأخـرى وأنكروا عليهم ما يدعـونه من امتيـازٍ ، وفى نفس الـوقت كان المولـدون المســتعربون يتقاربـون بـدافع اتحاد المصالح .

ولم يعطِّل اتحاد المولَّدين والمستعربين إلا رجالُ الـدين فى الناحيتين ، فقد كان القسـاوسـة يـؤلِّبـون النصـارى على المسلمين ، ويحضـونهم على التمسّك بنصرانيتهم ، فى حين كـان فقهاء المسلمين شـديدى العصبيـة لـدينهم ، يبذلـون نشاطاً عظيماً فى دعوة الناس إلى الإسلام وحثّهم على التمسّك بعقيدتهم .

وكانت غالبية الفقهاء فقراء ، فكانـوا يقيمون فى قرطبة فى حىّ شقندة جنوبىّ نهر الـوادى الكبير حيث يسكن العمال وصغـار التجـار والطلاب ، وكـانـوا لهذا

منبثين بين النـاس ، وكان لهم عليهم سلطـانٌ بحكم عملهم ، ومن نـاحية أخـرى كانوا قريبين من باب « السدة » حيث مكاتب الدولة وكان تردُّدهم عليها كثيراً .

وكانت هنـاك أقليةٌ من الفقهاء ممن حَصَّلُـوا علماً غزيراً ، ووصلوا إلى مـراكز الصدارة فى الدولة والمجتمع ، وهؤلاء كانوا يتمسكون بأصولهم العربيةِ صحيحة كانت أم زائفةً ، وكـانوا يدخلون فى زمـرة أهل الحكم والغنى والجاه . وكان الحكم ورجال دولته يعرفون هذه الحقائق كلها عن الشعب الذى يحكمونه ، ولكنهم كانوا يجهلون طبيعتـه وقدراته ، فلم يبالـوا به ولم يقدروه حَقَّ قـدره ، وكان ذلك منهم خطأ جسيماً . وعندمـا شرع الحكم بن هشام يحكم ، أقبل على الحكم كأنـه خليفةٌ شاب من خلفاء بنى أمية فى أواخر أيامهم فى المشرق ،فمضى يلهو ويتمتع بأطايب العيش ، ومن حوله حاشيةٌ متكبرةٌ متعـاليةٌ ، وجندٌ خاصٌ قاسٍ عنيفٌ على الناس ، معظمه من الصقـالبة وهم مماليك البيت الأنـدلسى الحاكم ، فلم تمض من ولاية الحكم شهـورٌ ، حتى بدأ أهل بيتـه وكبار دولتـه يدبـرون عليه ، لأنهم رأوا شـاباً خليعاً مـاجناً مستخفًّا ، وانضم إليهم نَفَـرٌ من الفقهاء . وفى ذاتِ مـرّةٍ كان الحكم عائداً من صيـدٍ له ، فتعرض لـه الجمهور وسبَّـه وأهانه ، فلما عـاد إلى القصر بدأ ينظر فيما آل إليه أمره ، ثم اكتشف مؤامرةً دَبَّـرها عليه أهل بيته ، فأوقع بأفرادها فى قسوة سنـة ١٨٩ هـ/ ٨٠٥ م . وقـد ضجّ الناس من قسوتـه وقسوة رجـالـه ، وبـدأ الخوف يسود بيت الحاكم والـرعية . فـاستكثر الحكم من الجنـد المرتزقـة الصقـالبة . وكـانت فى أفـراده قسـوةٌ وشـدةٌ ، وكانـوا لا يحسنون الكـلام بـالعربيـة، فسماهم الناس « بـالخرس » ، وسخط ميـاسير قرطبـة وكبار أهلهـا وفقهـائها على الحكم سخطـاً شديـداً ، وتـوتّر الجوّ وبـدا بوضـوح أن « الحكم » يَتَعَرَّضُ لمحنة قاسية .

فتنة طليطلة ويوم الخندق :

ولم يقتصر خـوف النـاس من الحكم على قرطبـة ، بل امتـد إلى طليطلـة حيث كانت غالبية السكان مولَّـدين ونصارى ، وكانوا متمسكين بما كان لهم من سيادة أيامَ كان بلـدهم عاصمة إسبانيا ، فكـان لهم زعماءٌ كثيرون يتمسـكون بحقوقهم القديمـة ، وبدلاً من أن ينظـر الحكم فى هذه القضـايا فى هـدوء وتعقُّل ويسعى إلى التفاهم مع الناس ليفهم الظـروف التى تؤدّى بهم إلى القلق ، نجده يلجأ إلى العنف

والحيلة ، وينـزل بأهل طليطلة مـذبحة كبيرة ، قضت على الثـورة مؤقتـاً ، ولكنها أساءت إلى سمعـة البيت الحاكم ، وأوجدت هُوّةً سحيقـة بين الحاكم والمحكومين ، وتسمى هذه المذبحـة باسم « يـوم الحفرة » لأن المقتـولين فيها وضعـوا فى حفرة كبيرة خلف قصر الحكم وأهيل عليهم التراب ، والجدير بـالذكر أن الذى دَبَّـر هذه المذبحة البشعـة كان أنـدلسياً من أصلٍ إسبـانىٌّ يسمى « عمروس » وكـان يتولى حكم طليطلة .

هيج الربض الأول سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٦م والثانى سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧ م :

وعندمـا بلغت قرطبة أنبـاء يوم الحفرة ومذبحتـه ، أصاب أهلها هلع شـديد ، تحوّل إلى غضب شديد ، فبدأت نذر الثورة تظهر فى العاصمة ، وكثر الاحتكاك بين جنـد الأمير وجمهـور الناس . ويبـدو أن الحكم لم يفطن إلى خطـورة مـا حـدث ، فمضى فى طريقه مستخفًّا بالناس ، غير عابـئٍ بمشاعرهم ،فتحدوه تحدياً ظاهراً ، وشتمـوه على الطريق وصفّقـوا عليـه بـالأيدى ، فقبض على طـائفـة من زعمائهم وصلبهم سنـة ١٩٠ هـ/ ٨٠٦ م . وسكتت الحال إلى حين . فلما كان الثـالث عشر فى رمضـان ٢٠٢ هـ/ ٢٥ مـارس ٨١٨م ، انفجرت مـراجل الغضب الشعبى فى الناحية الجنوبية لقرطبة وهى شقنـدة على الضفة الجنوبية من النهر وكانت فيها أحيـاء العمال والصناع والطـلاب وصغار الفقهـاء ، وقـد انضم كبار الفقهـاء إلى الناس فى هذه الثورة فى صورة ظـاهرة من أمثال « يحيى بن يحيى الليثى وطالوت ابن عبد الجبار وعيسى بن دينار » ، وفـوجئ الحكم فى ذلك اليوم بجموع الثائرين تتقدم إلى قصره للإطاحة بعرشه .

ويعجب مؤرّخونا بما أبدى الحكم من ثبات فى ذلك اليوم ، ولكننا نرى أن ذلك كان جمودَ قلب وبلادةَ إحساس فيه . فهؤلاء الثائرون لم يكونوا طامعين فى ملكه ، بل كانوا يطلبون العدالـة . وقد تصرّف الحكم معهم تصرُّفاً خسيساً إذ أطلق جنده على بيـوتهم فأشعلوا فيهـا النيران ، وعَرَّضـوا أولادهم وحريمهم للمـوت . فارتـدّ الناس لإنقاذ أبنـائهم فحصدهم الجند حصـــدا ، وانتهى اليـوم بانتصار الحكم ، ولكن عواقـب ذلك الانتصار كانـت وخيمة جدًّا على مصير الأنـدلس ، فإن الحكم

أصدر أمره بطرد أهل الربض الجنوبى من الأندلس وكانوا ألوفاً من أفضل الناس وأكثرهم شهامة ، وقد قاموا بأعمال تشهد بقوتهم فى كل ناحية وصلوا إليها بعد طردهم وقد هاجر كثير منهم إلى الشمال واستقروا فى أقاليم طليطلة وشمال غرب الأندلس ، وكانوا بعد ذلك من خيرة عناصره السكانية ، وذهب بعضهم الآخر إلى المغرب وأنشأوا « عدوة » الأندلسيين فى فاس ،وتوزعت جماعاتٌ منهم فى بلاد المغرب الأقصى الأخرى . واتجهت كتلةٌ منهم إلى الإسكندرية بالبحر فاحتلتها وطردت عاملها ، ولم يتخلص منهم عامل مصر إلا بمشقة فذهبوا إلى كريت وانتزعوها من أيدى البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧م ظلت تحكمها حتى استعادها البيزنطيون منهم سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م .

انتهت ثورة الربض بنصر الحكم ، ولكنها كانت درساً بليغاً له ولمن جاء بعده ، فقد رأى بعينيه قوة هذا الشعب الأندلسى واستعداده لإيقاف الحكام عند حدهم ، ومن هنا فسنرى أن الأمراء والخلفاء سيكونون بعد ذلك أكثر مراعاة لمشاعر الناس وأحرص على ولائهم .

ولم يسعد الحكم بحياته بعد أن قضى على هيج الربض ، فقد مرض وتطاولت به العلة وحلّ به الندم ، وجعل يتمنى لو أنه لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحو ، وتوفى فى قصره ولكن أهل بيته أخفوا خبر موته فلم يعلن إلا فى ٢٦ ذى الحجة ٢٠٦ هـ/ ٢٢ ديسمبر ٨٢٢م ، بعد أن تَقَرر الأمر من بعده لابنه عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط .

بداية الاستقرار :

عصر عبد الرحمن (الثانى) الأوسط : ٢٧ ذى الحجة ٢٠٦ ـ ٣ ربيع الآخر ٢٣٨هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢م .

الأمير محمد (الأول) : ٣ ربيع الآخر ٢٣٨ ـ ٢٨ صفر ٢٧٣هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٨٦ .

المنذر : صفر ٢٧٣ ـ منتصف صفر ٢٧٥هـ/ ٨٨٦ ـ ٨٨٨ م.

عبد الله بن محمد : ٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢ م .

عبد الرحمن (الثالث) : الناصر ٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ / ٩١٢ ـ ٩٦١م .

عبد الرحمن الأوسط : كان عبد الرحمن بن الحكم مؤهلاً بطبعه لإزالة الآثار المحزنة التى خلفتها إمارة أبيه ، فقد كان هادئ الطبع لين الجانب ، وكان ألوفاً حسن العشرة يحبه الناس ويجدون متعة فى الجلوس معه والحديث والتبسط معه فى منادمته ، وكان محبًّا للحياة متقرباً إلى الناس ، كما أنه لم يقل ذكاءً عن سَلَفَيه ، فقد كان يدرك كل شىء على حقيقته ، ولكنه كثيراً ما كان يتصنّع عدم المعرفة ويُغضى عن أخطاء الآخرين ، فزاد ذلك فى معرفته بالناس وقربه إلى قلوبهم فأحبوه وسعدوا به وأمنوا إليه . ولم يكن فيه غدرٌ ولا قسوةٌ ، ولكن كان فيه حزمٌ وقدرةٌ على اتخاذ القرار المناسب ، وكثيراً ما كان يدع الأمور تجرى وهو يرقبها دون أن يتخذ القرار إلا بعد وقت طويل ، ويبدو أن ذلك كان راجعاً إلى ميل منه إلى الدعة وإيثار للراحة ما تيسر له ذلك . وقد تولى فى الحادية والثلاثين من عمره ، وحكم ثلاثين سنة استطاع خلالها أن يحقق الكثير وتوفى عن اثنتين وستين سنة ، وأمه جاريةٌ جليقيةٌ اسمها « حلاوة » .

ولم تكن الفتن الداخلية لِتهمه كثيراً ، فكان ينتظر حتى تهدأ من نفسها أو حتى يهدئها بأقلِّ مجهود ، كما فعل مع فتنة المضريين واليمنيين التى استمرت سبعَ سنوات فى كورة تدمير ، وهى التى سميت فيما بعد مرسية فى شرق الأندلس ، وكانت تدمير من الكور المجندة ، وكان معظم جندها من جند مصر وغالبيتهم من اليمن ، ولكن المضريين فيها كانوا يحاولون السيطرة على اليمنية ـ ومن هنا كانت الفتنة ـــ وكان يرسل إليهم الجيوش بين الحين والحين ، فلما تفاقم أمرهم ، أرسل إليهم قائده « يحيى بن خلف » فى جيش كبير أوقع بهم قرب « لورقة » ، فأخذت فتنتهم فى الخمود وانتهت سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م . وكذلك كان موقفه من أهل ألبيرة الذين أقبلوا إلى قرطبة للشكوى من ظلم الأسقف والى النصارى هناك ، فقد انتظر أن يهدأوا ، فلما لم يسمعوا لنصحه سلط عليهم الجند .

وكان عبد الرحمن شديد الاهتمام بحماية حدوده الشمالية ، إذ أن نشاط العدوان على أراضى المسلمين تزايد على إثر ولاية « لويس التقىّ » عرش الفرنجة ، وهو من كبار ملوك فرنسا ، وكانت له أطماعٌ واسعةٌ فى إقليم قطلونية ، وقد عرف عبد الرحمن كيف يكسب صداقة البشكونس ضد الفرنجة ، فوقفوا إلى جانبه ، واستطاع أن يردّ غزوةً فرنجيةً على ذلك الإقليم فى سنة ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م .

كذلك نشط ألفونسو الثانى ملك جليقية وأشتريس فى الغارة على أراضى المسلمين ، واستولى حينا على مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، فرده عنها القائد « عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث » ، وألزم ألفونسو بدفع الجزية ، بعد معركة حامية فى سهل يسمّى « فج جرنيق » فى إقليم ألبة ، وقد قتل فى هذه المعركة عددٌ كبيرٌ من جند العدو ، ونهبت ذخائره الكثيرة وعم التخريب . وكانت هذه آخر غزوة قام بها هذا القائد المظفر الذى يعد من أكبر القادة العسكريين الذين ظهروا فى الأندلس ، فقد استمر فى ميادين القتال مدافعا عن الأندلس فوق الثلاثين سنة ، أبدى خلالها من القدرة العسكرية والإخلاص للأندلس ، ما وضع تقليدا جليلا سيتبعه قُوّادٌ أندلسيون كثيرون من بعده ، وتولى قيادة جيوش الإمارة بعده أمير من البيت الأموى ، وهو « أمية بن معاوية بن هشام » ، وقد استطاع أمية أن يواجه ثورات كثيرة فى نواح شَتَّى من نواحى الأندلس ، من بينها حملة له على اليمنية فى إقليم تدمير ، وكان رئيس من رؤسائهم قد عاد إلى التمرد ، ودعا لبنى العباس ، وأخيرا تمكّن أمية بن معاوية بن هشام من الإيقاع به فى وقعة حاسمة بالقرب من لورقة بعد ذلك بسنتين .

ولكنّ هِمّة عبد الرحمن تجلّت فى ذِيادِهِ عن حدود بلاده وموالاة الغزوات فى البة والقلاع وأراضى البشكونس وإقليم قطلونية ، وكان هو يقود بنفسه الغزوات فى معظم الأحيان . وفى عام ٢٢٨هـ / ٨٤٣ م أنزل هزيمة قاصمة بقوات إمارة نبرة ، وفى نفس السنة أيضا توفى ألفونسو الثانى الملقب « بالكاستو » أى النقى ، ملك جليقية وأشتريس بعد ٥١ سنة من الحكم ومناجزة المسلمين ، وخلفه ابنه « راميرو الأول » أو « ردمير » .

غزوات النورمان :

وفى أيام عبد الرحمن الأوسط ظهر خطر « الأردمانيين » وهى صيغة الجمع من لفظ أردمانىٌ أى نورمانىٌ ، وهم أهل الشمال والمراد بهم سكان اسكندیناوة ودانيماركة ، وكانوا يمرون إذ ذاك فى عصر بطولتهم ، وكانوا يغيرون على شواطئ أوربا الغربية بأساطيل من سفن صغار ذات أشرعة سوداء ، وكانت تدخل مصبات الأنهار وترسو داخل البلاد وتُغِير على المدن وتنهب ما تعثر عليه ،

وتوقد النيران لتثير الخوف ، ثم تهرب بسرعة وقد اشتهروا باسم « الفايكنجز Vikings » ، وبسبب استعمالهم للنار سماهم العرب بالمجوس .

وفى أيام شارلمان احتل النورمان الساحل الشمالى الغربى لفرنسا ، وكان يسمّى باسم « فريزيا » ، وأقاموا فيه ، وأنشأوا فيما بعد دولة فيه وسمى الإقليم باسمهم « نورماندیا » أو « نورماندى » ، وأبناء هؤلاء النورمان ، هم الذين فتحوا انجلترا بقيادة وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ م .

بدأت سفن النورمان تجوس بحار الأندلس الغربية ابتداء من سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م وكان أول ظهورها قرب شاطئ الأشبونة فى ذلك العام . فكتب بأمرهم واليها « وهب الله بن حزم » إلى الأمير عبد الرحمن يقول: إن أربعًا من سفنهم الكبيرة ذات الأشرعة السود ظهرت فى البحر ، ومع كلّ سفينة منها مركبٌ صغيرٌ ، فكتب الأمير إلى عمال السواحل بالتحفظ والاستعداد واليقظة . وسارت سفنهم إلى الجنوب ، فأغارت على قادش وأوغلت قواتهم داخل البلاد حتى وصلت شذونة ونهبت كل ما فى طريقها ، ثم عاد النورمان إلى سفنهم ، وساروا بحذاء الساحل حتى مصبّ الوادى الكبير فاستولوا على جزيرة « قبطيل » فى مدخله ، ثم دخلت السفن النهر وصعدت فيه حتى بلغت إشبيلية ونهبها النورمان ، وأحرقوا الكثير من ديارها ، بل أحرقوا المسجد الجامع . وبلغ الأمر الأمير عبد الرحمن فنهض للأمر بما هو أهله ، فأرسل القوات إلى الحدود الغربية وواجه النورمان فى شجاعة وحزم وتولى حربهم من قواد الإمارة « عبد الله بن كليب وعبد الرحمن بن رستم » فأوقع المسلمون بالنورمان هزيمة كبرى عند طليطلة شمال إشبيلية سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م .

وقد أغارت سفن النورمان على الأندلس بعد ذلك مرارًا ، ولكنها كانت ترد على أعقابها بخسائر فادحة فى كل مرّةٍ . وكانت أطول غاراتهم فى الأندلس ، هى غارة إشبيلية ٤٢ يوما ، ثم أغاروا على لبلة ثم على الأشبونة وعادوا فيما بقى من مراكبهم .

نشأة الأسطول :

كان من نتيجة الغزو النورمانى أن تنبه عبد الرحمن إلى أهمية الأسطول فبدأ فى إنشائه إنشاءً محكماً واتخذ له دور الصناعة والقواعد فى الأشبونة وإشبيلية

وولبة والمرية وبلنسية ومالقة ، ولم تنقض سنوات حتى كان للأندلس أسطولان قويان أحدهما فى المحيط الأطلسى ومركزه الأشبونة ، والثانى فى البحر المتوسط وقاعدته مالقة ، ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادى يظهر الأندلس كقوة بحرية كبرى ، وتبدأ أهمية البحرية الأندلسية كعماد لقوة إمارة قرطبة .

وكانت أولى ثمرات قيام ذلك الأسطول ، فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م وضمها إلى الأندلس ، ومن ذلك الحين تصبح جزائر البليار الكبرى الثلاث « ميورقة ومنورقة ويابسة » من ولايات الإمارة الأندلسية . وقد أنشئت ولاية الجزائر الشرقية سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م .

بعض المتعصبين من رهبان النصارى يحاولون إثارة فتنة دينية فى الأندلس :

ظهرت فى أيام عبد الرحمن كذلك فتنة تعصُّب نصرانية ، أثارها نفر من الرهبان ، إذ كانوا يؤكدون لأتباعهم قبل ذلك أن الإسلام باطل ، وأن دولته لن تلبث حتى تزول ، ولكنهم رأوا أمر الإسلام يشتد يوماً بعد يوم ، وإمارته تزدهر، ومجتمعه يزداد رخاءً وثباتاً ، كما رأوا الثقافة العربية تغزو قلوب الشباب من أبناء دينهم ، فلا يكاد أحد منهم يحفل باللغة اللاتينية أو آدابها بينما ينفقون جهداً كبيراً فى دراسة العربية ومطالعة آدابها ، بل برع الكثيرون منهم فى كتابة العربية ، وقد شكا ذلك قسٌّ متعصبٌ يسمى «البارو القرطبى» فى رسالة مشهورة، فلما وجد أولئك الأحبار المتعصبون أبناء دينهم لا يأبهون لأمرهم ، بل يزدادون عنهم انصرافاً ويدخل الكثيرون منهم فى خدمة الإمارة القرطبية ويسلمون ويؤاخون المسلمين ويصلون إلى الرتب العالية فى المجتمع والإدارة ، انفجرت مراجل حقدهم ، فإذا بهم يجاهرون بالعدوان للإسلام وإهانة مقدساته علناً أمام الناس ،وكان رجال الشرطة يقتادونهم إلى القضاء ، فيحاول هؤلاء استتابتهم دون جدوى ، فيحكمون عليهم بالإعدام ، وكان هذا هو غرضهم : أن يموتوا فى صورة الشهداء حتى يستثيروا عواطف الناس . وقد كثر خروجهم على هذه الصورة ابتداء من سنة ٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م ، وظهرت من بينهم أسماء رهبان أصبحوا بعد ذلك قديسين فى سجل الكنيسة ، من أمثال « يولوج والبارو وفلورا » وكلهم من

قرطبة ، وقد استعان الأمير عبد الرحمن بالصبر على هذه الأزمة ، وطلب إلى زعماء النصارى أن يعقدوا مجمعاً دينياً فى قرطبة لينظر فى أمر هذه المحنة بالعقل والحكمة . وبالفعل انعقد مؤتمر برئاسة « ريكا فريدو » مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه « غومس بن أنطنيان » أحد كُتّابه . وقد أصدر المجمع قراراً يستنكر فيه هذه الحركة الحمقاء ، وشيئاً فشيئاً هدأت هذه الفتنة وعاد الوئام بين النصارى والمسلمين بفضل هدوء عبد الرحمن وحسن نظرته إلى الأمور . وقد أسلم غومس ابن أنطنيان بعد ذلك وحسن إسلامه ، وأقبل على الاعتكاف فى المسجد الجامع فى قرطبة حيث لُقِّب بحمامة المسجد .

وعلى طول أيام عبد الرحمن الأوسط كان الصراع مستمراً ومتزايداً على الحدود الشمالية للإمارة فيما يلى طليطلة شمالاً . ومما يدل على أن قوة الإمارات النصرانية كانت تتزايد أن أهل طليطلة كانوا إذا خرجوا عن طاعة الإمارة ، استنجدوا بنصارى الشمال فأنجدوهم . وكان معظم استنجادهم بملوك ليون . ولهذا كان عبد الرحمن يوالى الغزو بنفسه ويُرسل قُوَّادَهُ كلَّ صيفٍ . وكانت الغارات تتجه أحياناً إلى نبرة وعاصمتها بنبلونة ، ومن ناحيتها تدخل إلى إقليم ألبة والقلاع وأحياناً إلى بلاد مملكة ليون .

وفاة عبد الرحمن الأوسط :

تُوُفِّى عبد الرحمن الأوسط فى ٣ ربيع الآخر ٢٣٨هـ/ ٢٣ سبتمبر ٨٥٢ م بعد حكم دام إحدى وثلاثين سنة ، تعتبر من أزهى فترات التاريخ الأندلسى بسبب ما ساد قرطبة وكبار المدن ومراكز العمران من هدوء وما تمتعت به البلاد من رخاء ورفاهية ، لأن عبد الرحمن ورجاله كانوا من أذكياء رجال الدول الذين يؤمنون بأن رخاء الرعية أساس لثبات الحكم واستقرار أسس العدالة والنظام .

ويرجع جانب كبير من رخاء الأندلس فى أيام عبد الرحمن إلى الفائدة الكبرى التى عادت على الإمارة من الاستفادة من ملكات رجال الأسر الموازية التى أشرنا إليها وهم الموالى ، وقد ظهر فى أيام عبد الرحمن عدد كبير من أبناء هذه البيوت أمثال القائد « عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث » الذى أشرنا إليه والقائد « عيسى بن شهيد » ، « ويوسف بن يوسف بن بخت » ، و « حسان بن أبى عبدة »

« ومحمد بن عبد السلام بن بسيل » ، « وعبد الرحمن بن رستم » ، وكانوا من كبار المخلصين للإمارة ولواجبهم ، وقد رفعهم عبد الرحمن إلى مراتب الوزراء ، فكان له نحو عشرة وزراء فى وقت واحد ، وقرر لهم أن يجتمعوا فى بيت من بيوت قصر السدة عرف ببيت الوزارة ليتناقشوا فى المهم من شئون الدولة ويرفعوا ما يرون من أمور الدولة إلى الأمير من كبار المسائل وكان الذى يعرض على الأمير هو الحاجب أى كبير الوزراء ، وأشهر من نعرف من رؤساء الوزراء هؤلاء عبد الرحمن بن رستم .

الوزارة فى الأندلس :

ونظام الوزارة فى الأندلس هذا من المبتكرات الكبرى فى التنظيم السياسى الأندلسى . لأن البيت الأموى كان غنيّاً بالشخصيات ذات الكفاية التى قدمتها باستمرار البيوت الموازية التى ذكرناها .

ومنذ أيام عبد الرحمن الداخل لم يتجه البيت الأموى إلى إيجاد وظيفة الوزير بصورتها واختصاصاتها التى نعرفها عند العباسيين فى المشرق ، وإنما اعتمد الأمراء الأندلسيون على أفراد من هذه البيوت فى تسيير شئون الدولة دون اختصاص واحد منهم بلقب معين أو وظيفة معينة ، حتى قيادة الجيوش تولاّها الأمراء وأنابوا عنهم فى أحيان كثيرة رجالاً حملوا لقب القائد ، ولكن لفترة الحملات فقط ، ولكن ظهور شخصياتٍ ممتازةٍ حقّاً من أمثال عبد الكريم بن عبدالواحد بن مغيث وعيسى بن شهيد جعل من الضرورى أن يختص أولئك الرجال بأعمال محددة وألقاب معينة ، فنجد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث يصبح قائد الجيوش بصورة مستمرة ، ويصبح عيسى بن شهيد قائداً أيضاً ، ثم نجد لقباً آخر يضاف إلى ابن مغيث وهو الحاجب ، وترتبط بوظيفة الحاجب كل الاختصاصات التى كانت للوزير فى المشرق ، وبالفعل تصبح الحجابة فى الأندلس هى الوزارة فى المشرق ، ويصبح الحاجب ثانى شخصية فى الدولة بعد الأمير ولكن الحاجب فى الأندلس كان رئيس وزراء فعلاً ، يرأس نحو عشرة وزراء ، ويعرض أعمالهم على الأمير ..

وقد وزعت الاختصاصات الإدارية بين رجال من أفراد هذه البيوت ، فهذا

للمال ويسمى « الخازن » وذلك للأمن ويسمى « صاحب الشرطة » ، وذلك للمنشآت ويسمى « صاحب الأشغال » ، ثم نجد لقب الوزير يعطى لهؤلاء على أنه لقب تشريف أو درجة وظيفة فى أول الأمر ، ثم نجده بعد ذلك مرتبطاً باختصاص معيَّن ،فنجد الوزير عيسى بن شهيد يقود الصوائف ويسمى « بالوزير القائد » ويوسف بن يوسف بن بخت يتولى شئون المال ويسمى « بالوزير الخازن » ، ومحمد بن السليم يتولى المواريث ويسمى « بالوزير صاحب المواريث » وهكذا .. ومن أيام عبد الرحمن الأوسط نجد الوزير فى الأندلس له معنى الوزير فى أيامنا واختصاصاته ومسئولياته ، ونجد الحاجب يصبح رئيس الوزراء ، فهو الوزير الكبير ، وهو الذى يلقى الأمير كل يوم ويناقشه فى شتَّى المسائل ، ويجتمع كل يوم مع أصحابه الوزراء فى دار خاصة عرفت باسم « بيت الوزارة » ، وفى هذا البيت يجلس الوزراء على ترتيب معين فى هيئة دائرة ، لكل واحد منهم وسادة يجلس عليها ، ووسادة الحاجب أعلى من بقية الوسائد ، ونجد لكل واحد من الوزراء ديوانه وكتابه (أى سكرتاريُّوه) ، والمسائل تدرس وتتخذ فيها القرارات ، ثم يأخذها الحاجب إلى الأمير ويعرضها عليه ، فما يوافق عليه يدخل ديوان الأمير لتحرر له الصيغة الديوانية أو القانونية الملائمة ثم يقدمها إلى الأمير ، الوزير صاحب العرض لتختم بخاتم الأمير ثم بخاتم الدولة وتصدر على النحو الذى تصدر به المراسيم اليوم وتكون سارية المفعول من يوم صدورها .

وقد تعددت وظائف الوزارة ، فنسمع مثلاً « بوزير الخيل » ، وهو الوزير المكلف بإعداد الخيل اللازمة لجيوش الدولة والعناية بها وبما تحتاج إليه من سرج ولجم ومراع وما إلى ذلك . وهناك « وزير الأعنة » ، ومهمته تقديم الخيل اللازمة لكلّ حملة مع فرسانها ، وإعداد الفرسان بكل ما يلزمهم ، وهناك وزراء بلا تخصُّصٍ معيَّنٍ ، وهم أشبه بوزراء الدولة ومكاتبهم فى القصر ، ليكلف الأمير منهم من يشاء بما يشاء .

وهؤلاء الوزراء جميعهم لهم الحقُّ فى لقاء الأمير والحديث معه ، وهم حاشية الأمير ومنهم أيضا ندماؤه . وكانت عناية الأمير تمتد إلى أولادهم ، فإذا مات الوزير أو تعطل عن العمل ، حل محلَّه ابنهُ ، وفى أحيان كثيرة لا يكون الابن ذا كفاية تؤهله للوظيفة فيعيّن له الأمير من يعاونه فى العمل حتى يتقنه ، وذلك حرصاً من الأمراء

على أن تكون الأمور دائما فى أيدى هذه البيوت المخلصة التى تشبه أسر النبلاء التى كانت تحيط بملوك الغرب .

وكان أهل هذه البيوت أوّلاً مقصوراً على موالى بنى أمية وأولادهم وما تفرع عنهم ، ثم دخلت عليهم أسر قربها الأمراء ، وكان منهم العرب والمولّدون والمستعربون أحياناً ، وكان الكثيرون منهم من البربر ، وجدير بالذكر أن الأندلسيين من الأصول البربرية كانوا لا يَقِلُّون كفايةً عن الأندلسيين من الأصول العربية أو أهل البلاد .

وكان الأمراء يُقيلون الوزراء ، وعندما يقال الوزير ترفع وسادته من بيت الوزارة ، وليس من الضرورى أن يحل محله وزير آخر ، وقد ينقل الوزير من وزارة إلى أخرى ، وقد يعطى لقبُ الوزير لموظفٍ كبيرٍ مثل حاجب المدينة أى محافظ العاصمة فيسمى الوزير صاحب المدينة وتوضع له وسادة فى بيت الوزارة والوسادة هى المقعد وقد يراد بها ما يسمى بالفوتى .

وفى بعض الأحيان لا نجد حاجباً ، فيقوم بعمله الوزير صاحب العرض ، وهذا الأخير كان يعتبر من خاصة الأمير ، أى من أهل القصر ، أى من الحاشية .

الخـــطط :

وكانت الوظيفة الكبيرة تسمى فى الأندلس « بالخطة » مثل خطة الوزارة أو خطة الخيل ، أو خطة الأعنة ، أو خطة الكتابة وهى تعادل ديوان دار الإنشاء فى المشرق ، وخطة المظالم ويراد بها النظر فى الشكاوى المقدمة ضد رجال الدولة وتطبيق الأحكام على طبقات أهل المملكة ، وخطة القيادة ، وخطة الأشغال وخطة البحر .

خطة القضـــاء :

ومن الخطط الكبرى فى الأندلس كانت خطة القضاء ، ويراد به « قضاء الجماعة » أو قضاء قرطبة ، وصاحبها كان يشبه وزير العدل ، فهو لا يتولى قضاء قرطبة فقط بل يختار قضاة المدن الأخرى والأقاليم ، وهو ينظر فى شئون القضاة ويراقب أعمالهم وله أن يعزل منهم من يريد ويقترح تولية القضاء من يريد ، وكان قضاة العواصم الكبرى يعتبرون نواباً له يرجعون إليه فى أحكامهم . وكان

« قاضى الجماعة » ثالث شخصية فى الأندلس بعد الأمير والحاجب ، ولهذا كان الأمراء يختارون قضاة الجماعة بعناية شديدة وتدقيق بالغ ، وكان أدنى خطأ ظاهر من القاضى يؤدى إلى عزله ، وكان لقاضى الجماعة سلطة على الأمير نفسه فى مسائل العدالة ، وكان من واجباته أن يحول دون ارتكاب رجال القصر وكبار الموظفين للمخالفات ، ولهذا كان القاضى رجلاً مرهوب الجانب ، وكان الكثيرون يتحاشون هذه الوظيفة خوفاً من ألا يستطيعوا إقامة العدل على الأقوياء أو تحرُّجاً من خدمة أمراء لا يرضون عن كل تصرفاتهم .

الفقهاء المشاورون :

وكان هناك إلى جانب الأمير دائماً عدد كبير من الشيوخ ذوى العلم الواسع والخلق المتين والدين القويم يسمون بالفقهاء المشاورين ، أى الذين يستشيرهم الأمير فى كبار شئونه ، وخاصة الدينية منها . وقد ابتدع فقهاء المالكية هذه الخطة لأنهم فى محاولتهم اتّباع آثار مالك بن أنس كانوا يرفضون تولى القضاء أو الوظائف العامة مكتفين بالانصراف إلى العلم والتدريس وإفتاء الناس فيما يعرض لهم من مشاكل . وكان هذا العزوف يرفع من مقامهم فى أعين الناس . ولم يكن عزوف هؤلاء الفقهاء عن تولى الوظائف تعبيراً عن عدم الرضا عن البيت الأموى لأنهم فى الحقيقة كانوا يؤيدونه كما رأينا ، ولكنهم كانوا يسيرون فى هذا فى آثار مالك الذى لم يتول وظيفة ما وعاش للعلم والتعليم ، وقد أراد الأمراء أن يفيدوا من مكانة أولئك الفقهاء الكبار فى نفوس الناس فقربوهم إليهم ، واختاروا من بينهم عدداً من أوسعهم علماً وجعلوهم فقهاء مشاورين وكانوا يعتبرونهم أهل شورى لهم ، وكانت مراكزهم تعدل مراكز الوزراء .

يحيى بن يحيى الليثى :

وأول من نسمع عنه فى هذه الخطة يحيى بن يحيى الليثى ، وهو فقيه جليل درس دراسة واسعة فى المشرق ، وعاد إلى الأندلس أيام الأمير هشام فاحتل مكانة جليلة فى الدولة ورفض أن يتولى القضاء . وفى أيام الحكم الربضى نجده يشترك فى ثورة أهل قرطبة على الأمير ويهرب بعد القضاء على هذه الثورة ثم يعفو عنه الأمير

ويعود إلى مكانته . وفى أيام عبد الرحمن الأوسط ترتفع مكانة يحيى بن يحيى حتى يصبح من أكبر شخصيات الدولة ، ويصبح بالفعل وزيراً للعدل يولى القضاة ويعزلهم ، وهو الذى كان يوصى باختيار الفقهاء المشاورين إلى جواره ، فظهرت هذه الجماعة فى كامل صورتها . ولم يكن الفقهاء المشاورون هيئة تجتمع معا ، بل كان الأمير يستشيرهم فرادى فقد يستدعيهم وقد يرسل القضايا إلى بيوتهم ليبدوا آراءهم فيها ، وكان يحيى بن يحيى الليثى كبير الفقهاء المشاورين فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، وكان الأمير لا يقرر شيئاً فى شئون القضاة إلا برأيه ، وقد استبد بأمر القضاة حتى ثقل عليهم فلما مات قال ابن عذارى : « فى هذه السنة مات يحيى بن يحيى الليثى واستراح القضاة مِن همّهِ » .

وقد تعاصر أيام عبد الرحمن الأوسط ثلاثة يعدون من أكابر الفقهاء فى تاريخ الأندلس كله هم : عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثى وعيسى بن دينار ، وقد قيل فيهم إن عبد الملك عالم الأندلس وعيسى بن دينار فقيهها ويحيى بن يحيى عاقلها .

وكان كبير المشاورين يسمى بشيخ القضاة أو « شيخ المسلمين » أو « رئيس البلد » وكلها تسميات تدل على كبر المكانة التى كان يتمتع بها الفقهاء المشاورون فى ذلك العصر ، ويلاحظ عليهم إلى آخر أيام عبد الرحمن الأوسط ، أنهم كانوا فقهاء ولم يكونوا أصوليين ، أى كانوا يعرضون فقه مالك فقط ولكن لا علم لهم بالحديث أو بأصول الفقه ، وإنما هم كانوا فى الأغلب فروعيين عمليين أى يعرفون من الفقه ما تمس إليه حاجة المعاملات الجارية ، وحتى فى هذا لم يكن لديهم من العلم إلا ما قاله مالك بن أنس . وسيظل مستوى العلم بالفقه فى الأندلس على هذا المستوى الرفيع حتى عصر الأمير « محمد بن عبد الرحمن » عندما يعود إلى الأندلس فقيهان أصوليان من أعلم الناس بالحديث الشريف ومناهج استخراج الأحكام من الأصول وهما : « بقىّ بن مخلد ومحمد بن وضّاح » ، وهما من مدرسة الأصوليين وكبار المحدثين الذين ظهروا فى المشرق فى القرن الثالث الهجرى ويمثلهم هناك « يحيى بن معين وأحمد بن حنبل » ، وعلى أيدى فقهاء من مستواهم وهذا الجيل سيدخل الفقه فى الشرق والغرب على السواء فى عصر جديد من عصوره وستبدأ سلسلة أجلاء الفقهاء المتقين المعروفين بالحُفّاظ .

الشخصيات الحضارية ـ زرياب :

يعدّ زرياب من الشخصيات التى نستطيع أن نسميها شخصيات حضارية . ويراد بالشخصيات الحضارية أولئك الأفذاذ الذين يتميزون بخصال وخصائص شخصية وعلمية أو فنية يكون لها أثر فى تطوير الحضارة ومستواها فى عصورهم وكان عبد الرحمن الأوسط نفسه شخصية حضارية فكان أميراً قادراً مجرباً حسن الحكم على الأمور ، ثم إنه كان عالماً وشاعراً ، وذا ذوق فى كل ما يتصل بشئون الحياة من مسكن ومأكل وملبس . وأول الشخصيات الحضارية التى سنتحدث عنها هنا ، هى شخصية على بن نافع الموسيقى المعروف بزرياب .

وكان زرياب فى أول أمره تلميذاً لإسحاق الموصلى موسيقىّ هارون الرشيد ، ويقال إنه أبدى من البراعة ما لفت إليه نظر الرشيد ، فشعر إسحاق الموصلى بالغيرة من تلميذه النابه فهدده بالقضاء عليه ، فخرج من بغداد ووصل إلى القيروان ، وهناك اكتسب لقب زرياب ، وهو طائرٌ أسود ، وهناك ظهر أمره كموسيقىٍّ ممتاز ، وانتشر صيته حتى بلغ الأندلس ، فاستقدمه عبد الرحمن الأوسط ، فوفد إلى قرطبة واستقبله الأمير استقبالاً حفيّاً ورتب له راتباً كبيراً وهيَّأ له الوسائل ليظهر فنه .

من أول الأمر أظهر على بن نافع أنه موسيقىٌّ فوق المستوى ، فأنشأ معهداً للموسيقى يتعلم فيه الشبان والشابات ، وكان يهتم بتربية الصوت وتوسيع مداه ، ويلزم التلاميذ بالقيام بتمارين وتدريبات عسيرة لكى يخرج الصوت من القفص الصدرى كله ، لا من الحنجرة فحسب كما يفعل الكثيرون من المغنين . والغرض من ذلك أن تستخدم إمكانيات المغنى الصوتية استخدامًا كاملاً ، فتتسع قدرته للتعبير الغنائى عن المعانى والأحاسيس .

وقد ابتكر زرياب طريقة لكتابة الموسيقى ، ومن المؤسف أننا لم نعرف إلى الآن كيف كان زرياب يكتب موسيقاه ، ثم أدخل تعديلاً جوهرياً على العود ، وهو أداة الموسيقى الرئيسية فى ذلك العصر ، فأضاف إليه وتراً خامساً وأصلح الدفوف والمزامير وأحكم صنعها ، واخترع الفرق الموسيقية التى تجمع بين العازفين والمنشدين ، وكان يلحن القطعة الموسيقية تلحيناً كاملاً يجمع به الإنشاد الجماعى

والفـردى والعزف . وهـو أول من أنشأ فى الأندلس المسرح الصغير الـذى تجلس عليه الفرقة الموسيقية ، وكان ذلك المسرح يسمى بالستارة .

وكان غناء أهل الأندلس إلى ذلك الحين غنـاءً عربيّاً بسيطاً هو الحداء ، فأدخل زرياب مـوسيقى عالية عرفت بـاسم « الزريابيـة » ، وأصبح الحداء أو الحدو هو الغنـاء الشعبى فى حين أن الموسيقى الزريـابيـة أصبحت الموسيقى الكلاسيكيـة الراقية فى الأندلس .

وكان زريـاب يعمل بنظام تـام وهيئة جليلـة ، فكان يخصِّص صـدر النهار للدرس والتـدريس ، وبعـد الظهر للقراءة والاطـلاع وفى الليل يتـوجه إلى القصر ، وكان سراة الناس يرسلون إليه بجـواريهم ليعلمهن ، وقد أخرج جيلاً من المغنيات الممتازات ، اشتهر أمرهن فى العـالم الإسلامى كله مثل « قلم وعلم وشفاء » . وبلغ من إعجاب عبد الرحمن الأوسط به أن أمـر ذات مرة بأن يدفعوا له ٣٠,٠٠٠ دينار مكافأة لـه على لحن ، فرفض خزنة الأمير إعطـاءه المبلغ على اعتبار أن ذلك تضييع لأموال المسلمين ، فلم يستطع الأمير إرغامهم على الدفع ! .

ولم يقتصر أثر زرياب على الموسيقى بل إنـه كان رغم سواد لونـه يتولى كبار الوظائف والمسؤوليات ، وكان فيصل الأناقة الأندلسية فى عصره ، وهو الذى علم أهل الأنـدلس كيف يرتـدون الصـوف شتاء والقطن أو الكتـان صيفاً ، وعـدل فى هيئات الثياب فقصرهـا وضـيق الأكمام وأعطاها هيئـة جميلة ، وعلم الأندلسيين كيف يقصون شعـورهم . وهو الذى علم الأنـدلسيين تقصير الشعر فى الجانبين ، وإرساله وراء الأذن . وابتكر للنساء تصفيفات عرفت باسمه مثل تصفيفة الجبهة وهى إنـزال الشعر على الجبين مع قصـه فى موازاة الحواجب ، وتفنّن فى العطـور ، فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والأدهان ومال إلى عطور الزهور .

كـذلك أدخل زرياب تعـديلاً على المطبخ الأنـدلسى ، فأدخل كثيراً من الخضر كالهندباء والكمأة ، وأضاف أصنافاً كثيرة عرفت باسمه ، وعلّم أهل الأندلس الأكل على الموائد واستعمال الملاعق والسكاكين بـدل الأصابع ، وخـرج بهم عن الأطعمة البدائية القديمة وهى العصائد والثرائد ، أى الألوان التى عرفها أهل المشرق .

وعلى الجملـة كـان زريـاب شخصية حضـاريـة ممتـازة ، فقـد أدخل تغييراً جوهرياً على المجتمع الأندلسى كله ، وسـاعد فى نقله من البداوة الى الحضارة ومن

الفوضى الى التنظيم المتحضر ، وكان إلى جانب ذلك شخصية محترمة ذا سمتٍ ووقارٍ ، ولم تؤثر عنه هفوة خلق أو سوء تصرف ، بل كان يتحامىَ الشراب ولا يتعاطاه .

وفى تاريخ الموسيقى العربية يحتل ذلك « الطائر الأسود » مكاناً جليلاً ، فقد كان من القلائل الذين أخلصوا للفن الموسيقى وجددوا فيه وحافظوا على السمة المحترمة للفنان ، ولم يسمحوالأنفسهم أبداً بأن يهبطوا إلى مستوى عامة المُسَلِّين والندماء ، فكان قليل التردّد على القصر ، لا يحضر إلا لحفل موسيقى ، وكان لا يذهب بموسيقاه إلى بيوت الأغنياء ، وإنما يذهب إلى داره من يريد أن يستمتع بفنه ، وقد جمع مالاً عريضاً من تدريس الموسيقى وتخريج الشبان والشابات ، وكان الكثيرون ممن تخرجوا على يديه أعلاماً للفن لهم فى المجتمع مكانة كبيرة . وقد توفى على بن نافع فى ربيع الأول ٢٣٨ هـ/ أغسطس ٨٥٢م قبل وفاة عبد الرحمن الأوسط بأسابيع قلائل .

ولم يكن على بن نافع (زرياب) الشخصية الطريفة الوحيدة التى ازدان بها عصر عبد الرحمن الأوسط ، فقد ظهرت فى أيامه جماعة من أجلِّ الشخصيات فى تاريخ الإسلام العام ، ويعد ظهور هذه الشخصيات الفريدة ، ثمرة من ثمار غراس بنى أمية الذين بلغ حكمهم نحو قرن من الزمان عندما توفى عبد الرحمن الأوسط .

عباس بن فرناس :

من هذه الشخصيات عباس بن فرناس ، وهو فى الحقيقة من رجال عصر الحكم الربضى ويكنى أبا القاسم ، وكان فيلسوفاً ورياضيّاً وشاعراً ، وهو من أهل « تاكرنا » فى جنوب الأندلس من أصلٍ بربرىٍّ ، وكان ذا براعةٍ فى الكيمياء وإليه تُعْزىَ طريقة خاصة فى صناعة الزجاج من طحين الأحجار ، وقد صنع آلة تعرف « بالميقاته » لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، وأكبر مخترعاته محاولته الطيران ، فقد صنع لنفسه كساء من الريش ذى جناحين كبيرين يضع فيهما ذراعيه ، وقد قفز بذلك الرداء من أعلى تل قرب مدينة بلنسية « منت أجود » وهو تعريب لاسم إسبانىMonte Agudo وطار بضعة أمتار ثم اختل توازنه وسقط ، ويرجع سبب سقوطه إلى أنه لم يفطن لأهمية الذيل فى طيران الطائر ، وكان من آثار

سقوطه أن انكسرت إحدى فقرات ظهره السفلى فلازم الفراش شهوراً متطاولة وسخر منه أهل عصره بشعر كثير .

وقد أقلع عباس بن فرناس عن محاولة الطيران بعد ذلك ، ولكن محاولته تعتبر صفحة جميلة فى تاريخ الحضارة العربية ، فهى أول محاولة عملية لإنسان فى الطيران ، وقد حكى اليونان أن رجلاً منهم يسمى « إيكاروس » حاول الطيران ولم يوفق ، ومحاولة عباس بن فرناس هى الثانية من نوعها فى تاريخ البشر قبل العصور الحديثة .

وقد ظلت محاولة عباس بن فرناس للطيران عالقة بأذهان أهل بلنسية زمناً طويلاً وعاشت حتى بعد أيام المسلمين ، فتحولت محاولته إلى أسطورة ، بل إن شخصيته لا تزال إلى يومنا هذا رمزاً على الفن والابتكار فى نواحى بلنسية وباسم التل الذى حاول الطيران منه ، يصدر أدباء بلنسية مجلة للشعر تسمى مونت أجودو Monte Agudo ولكنه لم يقلع عن الاشتغال بالكيمياء ، وهى فرع غير علمى من الكيمياء ، يرمى إلى تحويل المعادن إلى ذهب عن طريق الصهر فترات طويلة . وقد اخترع عباس شيئاً شبيهاً بقلم الحبر وأراد أن يوفر على الكتاب مئونة حمل الأقلام والمحابر أينما ساروا .

وإلى جانب ذلك كان عباس بن فرناس موسيقيًّا صانع ألحان مجيداً للضرب بالعود ، وقد أثارت اختراعاته وابتكاراته الريبة فى قلوب الفقهاء والعامة فاتهم بالزندقة ولكن أحداً لم يأخذ عليه شيئاً ، فعاش حتى توفى فى سن عالية فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط .

يحيى بن حكم الجيانى (الغزال) :

ومن طرائف الشخصيات أيام الحكم وابنه عبد الرحمن ، الشاعر الفيلسوف يحيى الغزال الجيانى ، وهو عربى من بكر بن وائل ، ولد فى جيان وقد سمى بالغزال لجمال هيئته وأناقته ، وكان شخصية بوهيمية يخلط الجد بالهزل ويأخذ الدنيا ساخراً لا يكاد يحفل لشىء ، وكان شاعراً مبدعاً وعقلاً جريئاً ، لا يكف عن مهاجمة الفقهاء والتندر بنفاقهم وتظاهرهم بالتقشف والعزوف عن الدنيا مع غناهم وحرصهم على المال والحياة ، وقد تعقبوه فى إصرار لكى يجدوا وسيلة

لاتهامه بالزنـدقة والقضاء عليه ، ولكنه كان أمهـر منهم ، فهرب إلى المشرق وغاب عنهم زمناً ، ولقى أبا نواس وأنشده شعره فأعجب بـه أبو نواس ، وفى هذه الرحلة قال كلامـاً كثيراً كان من الممكن أن يؤذيه ولكن أحـداً لم يتلبس عليه بشىء ثابت ، فلما عـاد إلى الأنـدلس لقى قبـولاً من عبد الـرحمن الأوسط وأصبح من نـدمـائه وأصحابـه ، وقد أعجب عبد الـرحمن بأدبه وظرفـه وهيأته فجعله سفيراً لـه لدى الملوك ، فأرسله فى سفارة إلى الامبراطور « تيوفيلوس » امبراطور بيزنطة ، فذهب فى رفقته صديق له يسمى « يحيى صاحب المنقلة » وكان رياضياً ، وقد كسب الغزال إعجاب أهل البلاط البيـزنطى ، وأعجبت به سيدات القصر رغم أنه كـان قد جاوز الستين من عمره ، وأنشـد فى بعضهن أشعاراً قـام المترجمون بنقلها إلى اليونـانية فلقيت إعجاب أهل القصر . وقـد قضى هذا السفير فى سفـارته ثلاث سنـوات عاد بعدها محملاً بالهدايا والذكريات . وحمل إلى عبد الرحمن رسالة من الامبراطور .

وقد كان نجاح الغزال فى هذه السفارة حافزاً لعبد الرحمن على إرساله إلى ملك النورمان فى الـدانمارك لكى يتباحث معه فى أمر أولئك الغزاة الـذين يؤرقون أمن الأندلس ، فذهب مـع صاحبه يحيى بالبحر أيضـاً . وكانت رحلة شاقـة اضطرته الأمـواج خلالها إلى الـرُّسُـوِّ فى إيـرلندة ثم فى انجلترا ، وأخيراً دخل مضـايق بحـر البلطيق ، ووصل إلى بلاط ملك النورمـان بعد أن كابد أهوالاً أحسن تصـويرها فى شعـره . وفى بلاط الملك أبـدع الغزال أيماً إبـداع واستظـرفه الملك ، وكـان يحب أن يستقدمه ويستمع إليه فى حديثه وفكاهـاته بواسطة مترجم ، ولكن إعجاب الملكة به كان أعظم وكان اسمها « تود » ، وقـال فيها شعراً كثيراً ، وطال مكوث الغزال فى بلاط النورمان لأن الناس أحبوه واستمسكوا به ولكنه كان لا بد أن يعود ، فعاد إلى قرطبة ليقص على النـاس قصصاً طريفاً وليحدثهم بما كان بينـه وبين الملكة تود ، وبطبيعة الحال لم يكن أحـد يأخذه مأخـذ الجد الخالص ، وكان هـذا من صالحه لأنهم لو أخذوه مأخذ الجد لأصابه أذىً شديدٌ على أيدى الفقهاء .

وقد عمر يحيى الغزال بعد ذلك عشرين سنة أخرى فمات وقد تجاوز الثمانين سنة ٢٥٠ هـ/ ٨٦٤ م .

التحول الحضارى فى الأنـــدلس فى عصر عبد الرحمن الأوسط :

وفى عهد عبـد الرحمن بن الحكم انتقل الأنـدلس من بساطتـه الأولى إلى ترف الحضارة ، فـأنشأ الناس القصـور الجميلة وأثّثـوها بـالأثاث الفـاخر والـرياش المستجلبـة من الشرق ، ووفـد النـاس على الأنـدلس بطـرائف الجواهـر والآنيـة والرياش ، واستجلب الناس الجوارى المعلمات مـن المشرق ، وسادت الأندلس كله موجة من الحضارة والترف ، وأخذت قرطبـة طريقها لتصبح أجمل مدائن أوروبا على الإطلاق ، ومـن أبرز ما ابتـدعه النـاس إذ ذاك « المُنَى » بضم الميم وهى جمع منية ، وهو البيت الريفى الذى تحيط به حـديقة ، أى ما نسميه نحن الآن بالفيلاّ ، وكان الرومان يسمونه بهذا الاسم وعنهم أخذناه . وقد انتشرت المنى شمال قرطبة وغربها ، وسكنها سراة الناس فى حى خاص يشبـه الأحياء الأرستقراطية فى عصرنا هذا ، وكان بعض الأغنياء يتوسعـون فى حدائق المنى حتى تصبح رياضاً ويسمى الروض « بالحَوْر » وقد امتدت الأحوار إلى الشمال والغرب امتداداً كبيراً .

وفى هذه القصور عاش الأغنياء حياة كلها ترف وغنى وقام على خدمتهم خدم كثيرون بعضهم أوروبى وبعضهم شرقى ، وحرص أولئك الموسرون على أن تكون لكل منهم ستارته ، تغنى فيها مغنيـات قادرات ، ولكن ذلك لا ينبغى أن ينسينا أن هذه كانت حيـاة الأقلية ، أما الأكثرية فى الأندلس فكانـوا يعيشون فى رخاء نسبى لأن البلد كـان غنياً وكان النـاس مقبلين على العمل لأن أعداد الناس كـانت قليلة ، وكانت الحكومة المركزية تشرف على أعمال الحكام عن طريق ديوان المظالم ، وكان مخصصاً بـالنظر فى شكاوى الناس مـن أعمال رجال الدولة وتصرفـاتهم ، وكان يتولاّه دائماً رجل من كبار أهل الـدولة ، له السلطة الكافية لمحـاسبة كبار الحكام . ومن الطريف أن يحيى الغـزال كان ممن طلبهم صاحب المظالم وكـانت تهمته أنه فَرَّق فى الناس القمـح المخزون فى أهراء الدولـة فى الأشبونة ، وكان قـد عُيّن عاملاً عليها ، وكان المفروض أن هـذا القمح مخصَّص للجنود ، ولكن « الحكم » وجد أن النـاس أولى به ، إذ نـزلت بهم مجاعة ، وقـد عُـزل يحيى الغزال من وظيفتـه لهذا السبب وانصرف إلى حياة الشعر واللهو فى قرطبة بعد ذلك .

زيادة مسجد قرطبة الجامع :

وقد اهتم عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت والمبانى ، وأهم منشآته زيادة المسجد الجامع ، فأضاف إليه سبع بلاطات[1] من ناحية الجنوب ، ونقل المحراب من موضعه إلى جدار الجزء الجديد .

وقد لاحظ المعمارى الذى قام بعمل الزيادة أن ارتفاع سقف الجامع لم يعد مناسباً لاتساعه ، ففكر فى طريقة يرفع بها هذا السقف ، وهداه فكره إلى أن يقيم فوق الأعمدة أعمدة أخرى وأقواساً أخرى ، فكان من نتيجة ذلك تلك الأقواس المزدوجة التى تعدّ من بدائع العمارة الإسلامية . وقد زاد المعمارى فى جمال هذه الأقواس بأن بناها مدماك من الآجر وآخر من الحجارة فأصبح ازدواج لون العقود طابعاً يميز عمارة مسجد قرطبة على ما عندنا من مساجد الإسلام . وقد رفعت هذه الأقواس المقامة السقف إلى ارتفاع يقرب من ثمانية عشر متراً ، مما زاد فى بهاء المسجد ورحابة داخله ، وكان ذلك الجزء المسقوف من المسجد الذى يعرف « ببيت الصلاة » يكون جزءاً صغيراً من الصحن العام لأن بقية الصحن كانت مكشوفة يدور عليها السور ، وقد زرعت فيها أشجار النارنج ، فسمى ذلك الجزء من الصحن « بهو النارنج » ، وقد تناقش فقهاء قرطبة وقتاً طويلاً فيما إذا كان من الجائز أن تغرس الأشجار فى بهو الجامع ، وأقر الفقهاء ذلك رغم مخالفته لرأى مالك بن أنس .

فى بلاط عبد الرحمن الأوسط :

وقد قام على عمارة هذا الجزء « نصر » فتى الأمير عبد الرحمن أى مولاه المقرب إلى نفسه ، وكان نصر رجلاً كفؤاً ولكنه كبقية صقالبة القصور كان جامد القلب ، أنانياً قليل الإحساس بالحب الحقيقى ، وكان يتآمر مع طروب جارية الأمير عبد الرحمن المقربة إلى نفسه ، وكانت طروب جارية بشكنسية شديدة الطموح ، وكانت ترجو أن يصبح ولدها عبد الله أميراً بعد أبيه متخطية بذلك الأمير محمّداً

---

(١) البلاطة فى مصطلح العمارة الإسلامية هى المسافة الواقعة بين أربعة أعمدة ، فإذا قلنا إن عبد الرحمن الأوسط زاد فى المسجد سبع بلاطات ، فمعنى ذلك أنه وسع المسجد ناحية الجنوب بقدر سبعة صفوف من الأعمدة .

كبير أبناء الأمير وولى عهده ، وقد بلغ بها الأمر أن دبرت قتل الأمير بالسُّمّ وقام نصر بإعداده ، ولكن بعضهم نبّه الأمير إلى الخطر فطلب إلى نصر أن يشرب الشراب المسموم فلم يسعه إلا أن يفعل وأسرع نصر والسم فى بطنه إلى سكنه وأرسل بطلب لبن الماعز ، إذ قيل له إنه يضيع أثر السم ، فلم يوجد حتى هلك . وقد فرح فيه الكثيرون ممن كان لا يكفّ عن أذاهم ، وارتاح منه القائد الحاجب عيسى بن شهيد وكان من المتمسكين بضرورة المحافظة على العرش للأمير محمد بن عبد الرحمن .

الشعر والموشح والزجل :

وما دمنا قد تحدثنا عن يحيى بن الحكم الغزال ، فلنقف وقفة قصيرة عند الفكر الأندلسى الذى بدأ يستقل عن الفكر المشرقى ، ويظهر فى صورته الناطقة بشخصيته ابتداء من ذلك العصر ، واستمر فى تطوره فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ومن جاء بعده ، إلى أيام عبد الرحمن الناصر .

لم يكن هناك مظهر للفكر الأندلسى إلا فى الشعر ، ولم يكن المجال قد انفسح أمام النثر الفنى ليظهر ، ولم تر الأندلس ناثراً أصيلاً من طراز الجاحظ أو ابن المقفع أو عبد الحميد الكاتب . وقد نشأ الشعر الأندلسى محاكياً للشعر المشرقى ، وعندما ثبتت أقدام الإسلام فى الأندلس كان عصر الشعر العربى الإسلامى الخالص قد انقضى بذهاب بنى أمية . ذهبت أيام جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة ، وانعقد لواء الشعر للمحدثين أو الكلاسيكيين المحدثين من أمثال أبى نواس وبشار بن برد . وأبى تمام وابن الرومى وابن المعتز ، وهؤلاء الخمسة بالذات كان لهم أثر بعيد جدًّا فى تكوين مدرسة مماثلة فى فن الشعر الأندلسى ، فنجد عند كبار الشعراء فى عصر الأمراء ، من أمثال « ابن عبد ربه ومؤمن بن سعيد ويحيى بن حكم الغزال ومحمد بن يحيى القلفاظ » صوراً شعرية مقتبسة من شعر أولئك الفحول ، وأبو تمّام بالذات كان له أثر عميق جدّاً عند شعراء الأندلس لرصانة شعره وجودة معانيه وديباجته العربية الخالصة ، ويلى أبا تمام فى ذلك ابن الرومى وابن المعتز ، فأما الأول فقد فتن الأندلسيون بسهولة شعره وسلامة نظمه وجمال الصور التى يأتى بها ، وأما الثانى فأعجبتهم فيه الصنعة والرقة والحديث الكثير عن البساتين والرياض والزهور والربيع وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة .

وفى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط نرى طلائع الشعر الشعبى الأندلسى وهو شعر يصاغ فى عامية أهل الأندلس ، ولكنه يلتزم أوزان الشعر العربى وخاصة السهل الجارى منها كالرمل والرجز ، وقد عرف هذا الشعر بالزجل . والزجل الذى يقال فى كل بلاد العروبة ولد فى الأندلس فى الغالب ، ونحن نسمع عنه أول ما نسمع فى تلك البلاد .

وعامية أهل الأندلس خليط من العربية والبربرية والإيبيرية الرومانية ، فإن الأندلسى كان يقول : كِيْروكاس دَلما » (أريد كأس ماء) ، « مِى ألما حزين دا اليوم » (نفسى حزينة اليوم) ، « اشتريت من السوكو سبانية بلانكا » (اشتريت من السوق غطاء فراش أبيض) ، « ازداد فولانو ولد سمرلو وبنت شقريلا » ، (ولد لفلان ولد أسمر وبنت شقراء) وهكذا .

وهذه اللغة هى التى كان الناس جميعاً يتحدثون بها ويفهمونها فى الأندلس ، وهى كذلك كانت لغة الزجل الذى سيبلغ أوج ازدهاره فى عصر الطوائف على يد زجالين موهوبين أشهرهم ابن قزمان .

بعد ذلك ظهر الموشح ، والغالب أيضاً أنه ابتكار أندلسى ، فكانوا يأخذون « مركز »[1] احدى الأغانى الشعبية باللغة الإسبانية الدارجة ، وينسجون على منواله أربعة أشطار أو خمسة تنتهى بذلك المركز الذى يسمى «خرجة » ، ثم أربعة أبيات أخرى عربية تنتهى بنفس الخرجة ، وهكذا :

السحر حق
وأنا به أشهد
أضل العشق
مهجتى ولا ينفد
وأين صدقو
من غريدة تنشد

---

(١) المركز هو بيت الشعر الذى يتكرر فى الزجل والموشح بعد نهاية كل فقرة شعرية ويسمى عندنا بالمذهب .

وإليك نموذجاً من الموشحات التى كانت تنشد فى الأندلس منظومة على أساس غير عربى ونكتبها بإسبانية اليوم لكى تزداد وضوحاً :

Alba qérta Kon Bel Fogore

Cuando Viene lide Fugor

Una alba que Tiene Tan hermoso fulgor

Cuando viene pide amor .

وترجمته بالعربية :

فجر ضياء بالغ الجمال

عندما يطلع يبعث الحب

فجر له ضوء ساطع جميل

عندما يأتى طالباً للوصال

وهذه الخرجة الإسبانية التى تسمى المركز أيضاً تتكرر بلفظها فى نهاية كل مقطع عربى مكون من ستة أشعار صغيرة كهذه ، وكانت العادة أن ينشد الأشعار الدينية منشد مفرد ، أما الخرجات أو المراكز فكانت تغنيها الجماعة مع المنشد أو المنشدة .

وقد انتقل الموشح إلى بلاد الإسلام كلها وأصبح نوعاً جارياً من الشعر ، يجمع بين العربية الفصيحة والعامية الدارجة ، وكان أول ظهوره على يد « مقدم ابن معافى القبرى » الضرير الذى نشأ فى أيام عبد الرحمن الأوسط .

ونعود إلى ذكر الشعر الفصيح فنقول : إن أكبر شعراء العصر الذى نتحدث عنه هم أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (١٠ رمضان ٢٤٦ ـ ١٨ جمادى الأولى ٣٢٨ هـ / ٢٩ نوفمبر ٨٦٠ ـ ٣ مارس ٩٤٠م) صاحب كتاب « العقد الفريد» وهو كتاب جامع شامل فى الأدب العربى الجاهلى والإسلامى ، وهو يصور لنا مفهوم العرب الأوائل للأدب ، وهو الأخذ من كل شىء بطرف ، أى ما نسميه اليوم بالثقافة العامة .

وكان ابن عبد ربه إلى جانب ثقافته الواسعة شاعراً أشبه بالرسمى للأمراء ، فهو يقول شعراً كثيراً ،ولكنه شعر مقصور معظمه على المديح والتهانى والفخر والمراثى وما إلى ذلك ، ولكن الرجل كان عاقلاً متعاوناً عرف كيف يحتفظ بمكان ممتاز فى المجتمع الأندلسى ، وقد ظل طول حياته شاعر الأندلس الأول حتى توفى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر عن سن عالية .

ومن أهم ما يذكر له من الشعر أرجوزة فى تاريخ أمراء الأندلس أدرجها فى كتاب العقد الفريد ، وقد ترجمت إلى الإسبانية نظراً لأهميتها التاريخية .

وعلى العكس من ذلك كان معاصره « مؤمن بن سعيد » ، فقد كان رجلاً متداخلاً كثير الوقوع فى الناس ، دائم الدعابة ، فنال الناس من أذاه شىء كثير ، وآذوه هم الآخرون كثيراً ، ولكن حياته غير السعيدة بخيرها وشرها ، بحلوها ومرها تصور لنا جوانب شتى من حياة الناس فى الأندلس .

أما ثالث شعراء الأندلس الذى تُحدثنا عنهم كتب الأدب الأندلسى فى ذلك العصر ، فهو أبو بكر بن هذيل ، وكان شاعراً مجيداً يحسن أشعار الموشحات والوصفيات ، وقد شهد وهو صغير جنازة ابن عبد ربه فآلى على نفسه أن يبلغ شأوه ووصل إلى ما أراد بحسن دأبه وكان ضريراً .

وهؤلاء الثلاثة إلى جانب يحيى بن حكم الغزال يصورون لنا آخر ما وصل إليه الشعر فى ذلك العصر ، وهم ليسوا أعاظم شعراء الأندلس على أى حال ، لأن أعاظم الشعراء هؤلاء سيظهرون فى أيام عبد الرحمن الناصر وما بعده أى عندما يصل الأندلس إلى الاستقرار الكامل وتصل حضارته إلى أقصى ما وصلت إليه من نضج فى عصر الطوائف ، وما تلاه من عصور الصراع الحاسم على مصير الأندلس .

ونلاحظ على الجملة أن الإمارة الأموية القرطبية قامت على رجال ذوى ملكات وقدرات لكل منهم ناحية اختصاصه وشخصيته الواضحة ، والدولة المركزية تعترف لكل رجل من هؤلاء بمكانته وتعطيه حقه وتفسح له المجال ليفيد بملكاته وليستفيد منها ، وهذه الظاهرة سمة من سمات القوة فى الدول ، لأن الدول تبنى على الرجال ، أما القول بأن « الدول تبنى على المال وبالمال يصطنع الرجال »

فمذهب خـاطئ يدل على ضعف ، وقـد أخذ بمبـدأ الرجـال بنو أميـة الشرقيون فى صدر دولتهم ثم بنو أمية الأندلسيون هـؤلاء ، وأخذ بمبدأ المال العباسيون ، وكان هذا من أهم أسباب ضعف دولتهم .

وناحية الضعف فى سياسـة الرجـال التى اتبعها الأمـويون الأنـدلسيون أن هـؤلاء كانـوا بطبعهم قـوماً ذوى خيـلاء وزهـو وغرور بأنفسهم ، فأسرفـوا فى الاعتـداد بأنفسهم ، فما من رجل تغضبـه الدولـة فى شىء إلا ويثـور فى ناحيتـه ويسبب المتاعب كما سنرى فى نهاية عصر الاستقرار هذا .

يضاف إلى ذلـك أن الكثير من نواحى الأنـدلس كان لها شخصيتهـا المستقلة التى تعترف بها الـدولة ، وتمنح أصحـاب الأمـر فيها درجـة كبيرة أو صغيرة من الاستقلال الداخلى ، ومثال ذلك منطقـــة الثغـــر الأعلى ، وهى حوض نهر الإبرو ومـا يليـه شمالاً إلى جبـال ألبرت (البرانس) ، فهـــذه منطقـة متـاخمة للممالك والإمارات المسيحيـة فى الشمال والشمال الغربى والشرقى ، وكانت تتولى أمـورها أسر محلية ، تتمتع بامتيازات إقطاعـية سلم بها الأمراء ، ومن هذه الأسر ما يرجـع إلى أصول إسبـانية محلية مثل « بنى قَسِىٍّ » المنحـــدرين مـــن « فُرتونيـــو » حكـام تلك المنطقـــة أيـــام الفتح العربى ، « وبنى هاشم » وهم عـرب استقروا هناك ووصلوا إلى الرياسة ، وكانت لهم قواتهم العسكرية وامتيازاتهم الإقطاعية فى نواحيهم . وكانت العلاقـات بين هذه الأسر والبيت الأموى فى تغير دائم بين الطاعة والعصيان ، ولكن رجالها كـانوا على الجملة من أهل الطاعة ، وخاصـة عندما قوى أمر إمارة قرطبة وثبتت أركانها فى عصر عبد الرحمن الأوسط وما بعده .

كذلك منطقة طليطلة ، فقد كانت منطقة ثغرية يتمتع أهلها باستقلالها المحلى ، فكانت لطليطلة مشيختها التى تدير أمورها بالاشتراك مع عمال الإمارة .

وكانت ثورات أهل طليطلة على الإمارة كـــثيرة ، ولكن الأمير محمّدًا ، انتهج ـ كما سنرى ـ سياسة جديـدة فى تأمين طليطلة والثغر الأوسط من عدوان نصارى الشمال وتوثيق علاقتها بقرطبة وتعزيز سلطان الإمارة فيها .

الأمير محمد بن عبد الرحمن (٤ ربيع الآخر ٢٣٨ هـ / ٢٤ سبتمبر ٨٥٢ م ـ ٢٩ صفر ٢٧٣هـ / أوائل أغسطس ٨٨٦ م) :

لم يكن الأمير محمد أكبر أبناء عبد الرحمن الأوسط ، ولكنه كان أصلحهم للأمر برأى أبيه ورجال مملكته ، وقد رشحه عبد الرحمن لولاية العهد ، وأخذ رجال الدولة بالالتفاف حوله . فلما توفى عبد الرحمن صار الأمر إليه دون مشقة .

وكان قد جاوز الثلاثين بقليل يوم تولى العرش ، وكان شابًا عاقلاً جدًا بعيد النظر هادئ الأعصاب ، حتى لنلاحظ عنده جموداً عاطفيًا يذكرنا بما كان عليه جده الأمير عبد الرحمن الداخل .

تولى محمد وحاجب الدولة « عيسى بن شهيد » فأقره على عمله ، وكان لعيسى فضل كبير عليه ، وكان كذلك آخر وزراء أبيه ، وقد زاد فى تنظيم الوزراء وترتيب أعمالهم حتى أصبحوا وزراء يقاربون وزراء اليوم فى اختصاص كل وزير بفرع من فروع الإدارة . وبعد أن توفى عيسى بن شهيد ، تولى الحجابة « عيسى بن الحسن بن أبى عبده » وكان وزيراً جليلاً رغم رثاثة هيئته ، ثم خلفه « هاشم بن عبد العزيز » وكان رجلاً أرعن طائشاً شديد الأنانية ، وقد كان له أسوء الأثر على الدولة وعلى الأمير ، بل إن رعونته كانت سببًا فى قيام كثير من الثورات والاضطرابات التى انتهت إلى عصر الفتنة الأولى الذى سنتحدث عنه .

ولقد واجهت الأمير محمداً لأوّلِ ولايته مشاكل محلية كثيرة فى مختلف النواحى فثار أهل طليطلة ، واتجه بنو قسى أصحاب الثغر الأعلى إلى الاستقلال بناحيتهم ، وتحركت جماعات ثائرة فى الغرب فى إقليم « ماردة » . وإن من يقرأ حوليات الأندلس أيام الأمير محمد ، ليتصور أن معظم النواحى خرجت على الإدارة المركزية . ولكننا ينبغى أن نذكر أن هذه كانت الحال أيضاً فى معظم ممالك أوروبا النصرانية ،لأن طبيعة الأرض هناك تسهل الثورة على من أرادها ، ثم إن الناس الذين نشأوا فى هذه البيئات الطبيعية الجبلية لا يميلون إلى الاستسلام للحكومات المركزية ، وخاصة رؤساء الناس فى تلك النواحى وهم أمراء الإقطاع ، ولهذا فقد كانت الثورات والحروب الداخلية دائمة فى هذه البلاد كما كانت دائمة فى الأندلس . المهم لدينا أن الأمير محمداً كان مدركاً لهذه الحقيقة وكان مستعداً دائماً لحماية وحدة بلاده لا يكف عن الخروج فى الحملات أو إرسال القواد بالجيوش.

وقد لقى من أهل طليطلة عناءً شديداً ، لأن ما فعله معهم جده الحكم ، كان قد قضى على جانب كبير من الثقة بينهم وبين البيت الأموى ، لذلك كانت الحرب سجالاً بين أهل طليطلة وجيش قرطبة ، واستطاعت قوات الإمارة أن تحرز نصرًا كبيرًا عند وادى « سليط » فى الجزء الجنوبى من كورة طليطلة سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ووقع نفر من زعماء الثورة والمحرضين عليها فى يد الأمير ، ثم انتهى الصراع بين الجانبين بنصر آخر لقوات الإمارة سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م خارج طليطلة نفسها ، وعلى أثر ذلك استكان البلد وصالح الأمير .

وأقام محمد فى طليطلة ينظر فى أمور أهلها ، فتبين له أنه لا بد من تحصين كورة طليطلة من الشمال بإنشاء خط من الحصون والاستحكامات يمتد بحذاء جبل « الشارات » حتى يصل إلى وادى « إبرو » ، فتقوم هذه الحصون بإيقاف أى تقدم للنصارى جنوباً ، ويشعر أهل طليطلة أنهم لم يعودوا بحاجة إلى مهادنة النصارى أو محالفتهم . وبالفعل أنشأ خط الحصون هذا ، وكانت أول مراكزه مجريط (مدريد اليوم) فى شمال شرقى طليطلة ، ثم « طلمنكة » وقلعة هنارس ووادى الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب ثم سرقسطة » . وقد سمى هذا الخط كله بوادى الحجارة أى وادى الحصون وأهم حصونه مجريط ومدينة سالم ، وهذه الأخيرة كانت القاعدة العسكرية للإقليم الثغرى الأوسط الذى عرف بالثغر الأوسط . أما الثغر الشرقى فكان يسمى بالثغر الأيمن وهو منطقة وادى إبرو وعاصمته سرقسطة . وكان هناك ثغر أدنى فى الغرب ، وهو استمرار للثغرين الأعلى والأوسط ، وأهم مراكزه « قورية وشنترين » ثم « الأشبونة » وهى قاعدته فى المحيط . وكانت هذه المناطق الثغرية الثلاثة مناطق حدود يحكمها حكام عسكريون بدل عمال الكور ، وكانت لها معاملة مالية خاصة ، فلم يكن أهلها يؤدون الأعشار وغيرها من الضرائب بنفس النسب التى كانت تجبى بها فى بقية البلاد ، إذ كان يراعى أن أهل هذه النواحى ينفقون أموالاً كثيرةً فى الدفاع عن أراضيهم ، ثم إنهم كانوا فى الغالب قومًا مسلمين ، يعاملون من جانب الحكومة برفق شديد . وقد جرت العادة فى بلاد الإسلام ، وفى الأندلس خاصة ، بأن يفد إلى هذه الأقاليم المطوعةُ والعُبَّاد والزُّهَّادُ والمرابطون ليرابطوا على حدود الإسلام حماية لدار الإسلام ، حسبةً لله والتماساً للثواب .

وعاد خطر الأردمانيين (النورمـان) يهدد شواطئ الأندلس ، وكان المسلمون قد استعدوا لهم بـالأساطيل ، فلم يستطيعوا هذه المـــرة أن يصيبوا من المسلمين ما كـانوا يصيبـونه فيما مضى ، فلم يجرؤوا على اقتحـام الأشبونـة أو إشبيلية ، فانقضـوا على بلدة صغيرة هى « باجـة » فى البرتغال الحاليـة ، وهناك أوقعت بهم قوات الإمارة هزيمة كبيرة ، وبعد ذلك تحولت غزوات النورمان إلى ضربات سريعة على السـواحل ، وامتدت حتى وصلت السـاحل الشرقى لشبه الجزيـرة ، ويئست تمامًا من القدرة على القيام بعمل كبير فى الأندلـس الإسلامى ، فاتجهت إلى إسبانيا النصرانيـة وتمكنت من الدخـول بسفنها فى نهر الإبـرو ، ووصلت إلى « بنبلونـة » عاصمة نبره (نافـار) ونهبتها نهباً ذريعاً وأســرت ملكهـا « غرسيه » ولم يردوه إلا لقاء فدية كبيرة .

وتلك كـانت آخر محاولـة قام بها الأردمـانيون ضـد الأندلس ، إذ تبينـوا أن شواطئـه محروسة وأساطيلـه معدة ورجالـه متنبهون ، ولم يعـد أحد يسمع عن خطر المجوس على الأندلس بعد ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

كذلك قـامت حروب كثيرة بين الأندلـس ومملكة « نافـار وليون » وقد كـانتا لخوفهما من المسلمين قـد اتحدتا وانضم إليهما أحيـانـاً « موسى بن مـوسى بن قسى » ، صـــاحب الثغـر الأعلى أى سرقسطـــة . وكـــان آل قسى فى الأصل أسرة إسبانية نصرانية ، اعتنقت الإسلام ودخلـت فى طاعة المسلمين ، ولكن رجالها ظلوا يتمسكون باستقلالهم المحلى فى كل منطقـة الثغر الأعلى ، ويبدو أن هذا الاستقلال المحلى كان أمراً تحتمه الضرورات الجغـرافية والتاريخية . وقد قدر أمـراء قرطبة هذه الظـروف ، فكانـوا يكتفون من أمـراء الثغر الأعلى بطـاعة اسميـة وفى أحيان أخـرى كانـوا يحاولـون كسر شوكتهم . وعلى أى حـال فلم يكن من الممكن اتبـاع سياسة أخـرى حيال أمراء ثغر بعيد كهـذا ، يحيط به الأعداء من الشمال والشرق والغرب . وقـد كان بنو قسى التجيبيـون ثم بنو هاشم الطـويل ، من أكبر أسباب استقرار الأحوال فى الثغر الأعلى ، فقد قـام على رأس هذين البيتين رجال محاربون أشداء ، استطاعوا الصمود للضغط النصرانى ومصانعة جيرانهم من النصارى إذا اقتضى الأمـر ذلك . وقد أدى ذلـك إلى خلافـات كثيرة بينهم وبين أمـراء قرطبـة ، ولكنهم تمكنوا من حمايـة ثغرهم وأهله ، وتأمينـه حتى أيام عبد الـرحمن الناصر

عندما تغيرت العلاقات بينهم وبين إمارة قرطبة التى تحولت إلى خلافة . ويرجع إلى رجال هذه البيوت الإقطاعية الفضل فى تثبيت أركان الإسلام والثقافة العربية فى ذلك الإقليم ، فإنه ظل بعيداً عن الثورات الكبرى على قرطبة ورجالها ، وكان من أكثر نواحى الأندلس عروبةً وإسلاماً .

وقد انتصر الأمير محمدٌ على مملكتى « نبرة وأشتريس » فى كل حروبه معهما بفضل قادته من أمثال « عيسى بن الحسن بن أبى عبده » و« عباس القرشى » ثم أبناء الأمير محمدٍ : عبد الرحمن والحكم والمنذر وكانوا قادة موهوبين .وقد تمكنت الإمارة القرطبية من القضاء على أطماع « أردونيو الأول » ملك أشتريس وليون حتى توفى سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م وخلفه أخوه « ألفونسو الثالث » الملقب بالكبير ، وهو من أعاظم ملوك إسبانيا النصرانية . وفى أيامه نقلت عاصمة المملكة إلى مدينة ليون ، وأصبح اسمها مملكة ليون ، ومن أواخر أيام الأمير محمد نجد أن مملكة ليون تصبح منافسًا خطراً للإمارة القرطبية .

ولم يمنع الأمير محمّدًا من إيقاف مملكة ليون عند حدّها إلا كثرة الثورات عليه فى بلاده . ولم تكن هذه الثورات ناتجة عن ضعف الحكومة أو إهمالها لواجبها بل سببها اتساع دولة بنى أمية ووعورة أرض البلاد ثم قلة العرب وسط الجموع الأخرى من المستعربين والمولدين . وكان الظاهرون من رجال كل ناحية لا يكفون عن معاداة الحكومة والاتجاه إلى الاستقلال ، وربما كان أسلم السياسات هو أن تسير إمارة قرطبة على نفس النظام الذى كانت تسير عليه ممالك أوربا النصرانية فى ذلك العصر ، وهو الاعتراف بأمراء الإقطاع فى نواحيهم ، فى مقابل خضوعهم الرسمى للدولة وأداء مال معين وتقديم قوات محاربة وقت الحاجة . ولكن مفهوم الدولة عند بنى أمية ورجالهم لم يكن يقبل هذا الوضع ، ثم إن وجود جماعات كثيرة من العرب فى الشرق والجنوب والغرب ، كان عقبة فى سبيل إقرار نظام كهذا ، فقد كان للعرب — فى الكور المجندة خاصة - امتيازات كثيرة . فاذا قبلت الدولة نظام الإقطاع ، فقد كان أولئك العرب الذين سيكونون أصحاب الإقطاعات الأموال التى كانوا يجبونها من الناس بحسب نظام الكور المجندة . ولم يكن هذا من صالحهم لأنهم كانوا ميالين للفوضى أوّلاً ، ثم إنهم كانوا بعيدين جدًّا عن إدراك فكرة الدولة وفضائل الخضوع للنظام . ومن الغريب

أن أولئك العـرب الذين استقـروا فى نواحى « تـدمير » وهى « مرسيـة » العربيـة ، وكذلك نواحى غـرناطة وبعض كور الجنوب ظلوا متجمعين فى مـراكزهم يعيشون حياتهم العـربية فى مواطنهم الأولى ، يقضـون أوقاتهم فى مجال الفروسيـة وقول الشعـر والحرب فيما بين بعضهم وبعض ، ممـا كـان يخرب الأريـاف ويـؤذى الـزراعـات وكـان معظمهم من المولـدين والمستعـربين . وقـد بلغ من قصر نظـر رؤسائهم أنـه كان لا يعنيهم مصير الإمارة مع أنها كـانت درعهم الواقى وقـاعدة قواتهم . وسنرى ذلك بوضوح عندما تقوم الفتنة .

وقد تعرضت الإمارة فى النواحى الغربية فى بلادها من « كور ماردة وبطليوس والأشبونة » وبقية مـا يعرف اليوم بالبرتغال ، لخطر من نـوع آخر ، فهناك كانت تقيم جماعـات كبيرة من المولـديـن الـذين احتفظـوا بشخصيتهم المحـلية وبروابطهـم بأصولهم الإسبـانية . وأرض الغـرب هذه كانـت مفازات (أى أرض قاحلة) وأراضى جبليـة يصعب على الإمارة السيطرة عليها سيطرة تـامة ، وكانت الدولة تلجأ إلى العنف ، والعنف يولـد العنف . ومن أمثلة ذلك تصرف الإمارة حيال طائفة من زعماء أهل الغرب الأندلسى كان مركزهم مدينة ماردة ويتزعمهم مسلمٌ مُوَلَّـد من أصلٍ جليقىٍّ يسمى « عبـد الرحمن بن مـروان الجليقى » ، وقد طـالبوا الحكومـة بأن تسمح لهم بشىء من الاستقـلال فى ناحيتهم ، وبدلاً مـن الموافقة ، نجد الأمير محمداً يخرج جيوشه إلى ماردة سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، ويستولى على ذلك البلد ويأخذ كبار الثائرين معه ويسكنهم فى قرطبة ليطمئن إلى ولائهم .

ولكن الوزيـر « هاشم بن عبد العـزيز » أساء التصرف مع « عبـد الرحمن بن مـروان الجليقى » وأهـانه ، فهـرب من قـرطبة إلى مـاردة ثم إلى بطليـوس ، وعبثاً حاولت الإمـارة إخضاعه دون جدوى ، فتحـالف مع ألفونسو الثـالث ملك ليون ، وأرسل محمدٌ لحربه سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٦م ابنَه « المنذر » ومعـه الوزير « هاشم ابن عبد العزيز » . وكـان هاشم رجلاً طائشاً عاجزاً عن مـواجهة عبد الرحمن بن مروان الجليقـى وحليفه « سعدون السرنبـاقى » ، وكـانت النتيجة هـزيمة كبيرة لجيوش الإمارة فى شوال ٢٦٢ هـ/ يونيـه ٨٧٦ م ووقوع هاشم بن عبد العزيز فى أسر السرنبـاقى فأسلمـه لعبد الـرحمن الجليقى . وقـد افتداه الأمير محمـد بمائة وخمسين ألف دينار ، وبعد حروب طويلـة انتهى الأمير إلى الاتفاق مع عبد الرحمن الجليقى على إقراره على بطليوس ونواحيها ويكون فى رجال الإمارة وحلفائها .

ثورة عمر بن حفصون :

ولكن أكبر الثورات الداخلية التى نتجت عن إصرار الحكومة المركزية على بسط سلطانها المباشر على النواحى ، ورفضها السماح بنصيب كبير من الاستقلال لأهل النواحى ، نراه فى ثورة « عمر بن حفصون » فى ولاية « رَيهْ » الجنوبية وهى ما يسمى الآن بمحافظة « مالقة » .

ويذهب مؤرخو إسبانيا إلى أن ثورة عمر بن حفصون تمثل نزوع الإسبان إلى التخلص من سلطان العرب ، وهم يدرسونها على أنها جزء من التاريخ الإسبانى العام . وذلك خطأ من كل ناحية ، فعمر بن حفصون أندلسىٌ مولداً ونشأة وعاش معظم حياته مسلماً ، وأسباب ثورته تتصل كلها بنظام الحكم الأموى ، ووجود جماعات كبيرة من العرب فى كور « تدمير والمرية وغرناطة » ، وسوء تصرف أولئك العرب مع الزراع وأهل القرى فى تلك النواحى ، ومعظمهم مولدون ومستعربون . وهو لم ينزع قط إلى الانفصال عن الأندلس إلا عندما تدهورت ثورته وأصبح يلتمس النجاة من الهلاك المحتوم بأى طريق . وهذا لا يمنع من القول أنها كانت ثورة خطيرة وأنها هزت كيان الدولة الأندلسية هزاً عنيفاً . وقد كان أمراً محزناً فى أيام عمر بن حفصون ، ولكنه كان مفيداً فيما بعد ، لأن هذه الثورات الشعبية تكشف عن الكثير من العيوب الكامنة وتحفز أولى الأمر على تلافيها .

والسبب المباشر لقيام هذه الثورة هو تشدد عامل « رَيِّهْ » فى جباية الأموال المتأخرة . أما السبب الحقيقى فهو أن أهل هذه النواحى الجبلية لم يظفروا قَطّ بالعناية الكافية من جانب الحكومة المركزية ، فامتلأت نفوسهم بأسباب الغضب والشكوى وأصبحوا حطباً يابساً لنيران أية ثورة تقوم .

وقد بدأ تمرد أولئك القوم فى سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م وحاول الأمير محمد أن يطفئ نيرانها بالقوة فلم يفلح ، وهنا ظهر عمر بن حفصون ، وأخذ يتزعم مطالب أولئك الناس أمام الحكومة المركزية . وهو من أصل إسبانى مسيحى . إذ أن جده « ألفونس القسى » ، وجده الرابع هو الذى اعتنق الإسلام ، فنشأ هو فى « ريه » رجلاً عنيفاً متمرداً ، فجمع طائفة من الأشرار ونزل فى مكان منيع بجبل « ببشتر » شمال شرقى جبال « رنده » ، واعتصم فى ذلك الجبل وأخذ يناوىء قوات الإمارة . وهنا أرسل محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز وكان قد أخلى سبيله من الأسر ،

فاستطاع استنزال عمر بن حفصون من حصنه وضمه إلى ضباط جيش الإمارة ، وفعلاً اشترك فى حملات قامت بها فى الشمال . ولكن ابن حفصون كان متمرداً بطبعه ، ثم إن هاشم بن عبد العزيز أساء إليه فترك قرطبة مرة أخرى وعاد إلى العصيان سنة ٢٧١ هـ/ ٨٨٤ م .

وسار « المنذر بن محمد » لمقاتلته وضيق عليه ، فلما كان على وشك الاستيلاء على حصنه الأخير بلغه الخبر بموت أبيه الأمير محمد ، فارتد المنذر إلى قرطبة فى ٢٩ صفر ٢٧٣ هـ/ أوائل أغسطس ٨٨٦ م فتنفس مخنق عمر بن حفصون بعد أن كاد أمره يتبدد .

ونستطرد مع تاريخ حركة عمر بن حفصون فنقول إن الأمير المنذر خلف أباه محمداً ، وكان فارساً نجدا وقائداً قادراً ، فسار لمحاربة ابن حفصون ، وكان هذا قد انتهز الفرصة ووسع سلطانه حتى شمل منطقة « رَيَّهْ » بأكملها ، وأخذ يتكلم فى ضرورة الثورة على السلطة للتخلص من الضرائب والظلم . ويذهب فئة من المؤرخين إلى أن عمر بن حفصون دعا إلى تحرير البلاد والتخلص من الحكم العربى . والحقيقة أن عمر بن حفصون كان مسلماً ، وكذلك كان كل رجاله ، وكان رجلاً تربى فى ظلال الإسلام ، فهو ثائر على سوء الإدارة وطامح إلى السلطان ولكنه لم يقصد أبداً الارتداد بإسبانيا إلى النصرانية ، فهو فى ثورته لم يحاول الاتصال بنصارى الشمال ، بل كتب إلى الخليفة العباسى يطلب منه أن يوليه حكم البلاد التى دخلت فى طاعته ، وكاتب « بنى رستم » أهل « تاهرت » ، وكذلك كتب إلى « بنى الأغلب » يطلب مساعدتهم ولو أنه لقى من قرطبة بعض التسامح ، فقد كان من الممكن أن يعود إلى الطاعة آخر الأمر .

وقد صمم المنذر على القضاء على الثائر ، فسار إليه وحاصره فى الجبل الذى اعتصم به حتى أرغمه على التسليم ، بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين فى صفر ٢٧٥هـ/ يونية ٨٨٨ م وخلفه أخوه عبد الله بن محمد .

الأمير عبد الله :

وكان الأمير عبد الله يختلف عن أخيه المنذر وأبيه محمد ، فقد كان بارعاً فى حبك المؤامرات ، ولم يكن واسع الذكاء ولا بعيد التصور ، ولكن فضيلته الكبرى

كانت الثبات ، فإن هـذا الرجل لم يكن ليفقد صوابه أو هدوءه أبـداً رغماً عن تواتر الثورات عليه .

ولم يستطع الأمير عبد الله القضاء على ثورة ابـن حفصون ، فامتد أذاه إلى كل نواحـى جنوب الأندلـس ، وخاف العرب على أنفسهـم ، فتصدوا لحربه وتـزعمهم رجال من أمثـال « سوار بن حمدون القيسى المحاربى وسعيد بن جـودى ومحمد ابن أضحى الهمدانى » فى كورة غرناطة . وكذلك ثار عرب إشبيلية ، بقيادة « كريب ابن خلدون وإبـراهيم بن حجاج » ، وطال النزاع بين أفـراد هذين البيتين ، ولم يبق فى طاعة الأمير عبد الله إلا قرطبة وأحوازها .

ولم تَنْجُ الإمارة القـرطبية من الزوال إلا بفضـل قائد عظيم هو « أبـو العباس أحمد بن أبى عبـده » فإن هذا العسكـرى الموهوب . استمـر نحو ثـلاثين سنة فى ميادين الحروب مدافعاً عن الجماعة ووحدة الأندلس . وبفضل هذا القائد وابن أخ له هو « عبيد الله محمد بن أبى عبده » ، استطاع الأمير عبد الله إيقاع هزيمة قاصمة بعمر بن حفصون فى ٢ صفـر ٢٧٨هـ/ ١٦ مايو ٨٩١م . واســـتولى بعدها على حصن « بلى » من أحصن معاقل ابن حفصون قرب مدينة « نبرة » ، وقد كانت هذه المعركـة هى الخطوة الأولى نحو القضاء على عمـر بن حفصون ، فقد طـارده جند الإمارة وحـاصروه فى معقله الأكبر وهو « ببشتر » ، ولكنهم لم يستطيعـوا القضاء عليـه لتعدد الثـورات . وعندمـا تـوفى الأمير عبد الله فى أول ربيع الأول ٣٠٠هـــ/ أكتوبر ٩١٢ م كـانت ثورة عمر بن حفصون ومعظم الثـائرين قد وهنت ، وتمهد الطـريق لتسليمهم لـلإدارة القرطبيـة ، والفضل فى ذلك راجع لهذا الأمير عبـد الله الذى استطـاع رغم وجود النقص الكثير فى أخـلاقه ، أن يجتاز بـالإمارة القـرطبية المحنة وينجو بها من الأخطار .

وقد أمضى الأمير عبد الله حكمه كله فى حـرب متصلة مع أولئك الثائرين الذين تكاثروا فى كل ناحية وازدادت جرأتهـم على الإمارة ، وتســمى هذه الفتــرة كلها « بفترة الفتنـــة الأولى » ، وتمتـد من أواخر أيـــام الأمير محـمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن النـاصر ، وتعددت مراحلها وأدوارها ، ففى دورهـا الأول كانت ثورة من بعض أهل النـواحى على ما سمَّوه ظلم الإدارة القـرطبية وإجحـافها فى جبـاية

الأمـوال ، وليس ذلك بصحيح . وتـرتبط هذه الـدعـوة بأسماء « عبد الـرحمن بن مروان الجليقى » فى الغرب « وعمر بن حفصون » فى الجنوب .

وعندمـا طالـت الحرب وأحس العرب فى نـواحى تدمير وغـرناطـة وإشبيلية بضعف الإمارة ، بادروا هم الآخرون إلى الثورة على الإمارة وخلعوا طاعتها ، وقال شعـراؤهم شعراً يطـالبون فيـه الإمارة بأن تترك الأنـدلس لهم ، واستطالـوا على المزارعين وأهل القـرى وظلمـوهم فنجم من بين هـؤلاء ثوار انضمـوا إلى عمـر بن حفصـون ، ودارت الحرب بين ابن حفصـون والعـرب ، وكـان النصر عليهم لابن حفصـون حتى وقع فى أسره قـائدهم « سوار بن حمدون المحـاربى » . واشتـدت الفتنة بين بنى حجـاج وبنى خلدون فى إشبيلية واشتعلت الأندلس كلهـا ناراً كما يقـول ابن عذارى : وهـذا هو الـدور الثـانى للفتنة . وقـد واجهها الأمير عبـد الله بشجاعـة ومعه قواده ، وقد ذكـرنا اثنين منهما ، ونضيف إليهما هنا « جعـــد بن عبد الغافـر » الذى استشهد فى حربه مع بنى حجاج ، ولكنـه حطم قواهم واستمر الأمير على ذلك حتى استـولى رجـال الأمير عبـد الله على حصن « بُلى » ، فـانكسرت شوكة عمر بن حفصون وفقـد هيبته وتخلى الناس عنه واعتصم بمعقله الحصين فى ببشتر حتى توفى الأمير عبد الله سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢ م .

ومن حسن الحظ أن الذى خلفـه كان « عبد الرحمن بن محمـد بن عبد الله » ، وكان الأمير عبـــــد الله قد قتل ابنه محمداً لاتهامه بمؤامـــــرة ، وذلك قبل مولد عبـد الرحمن بأسـابيع قليلـة ، وقد تحول نـدم الأمير على قتله ابنـه إلى عطف على حفيـده ، ولذا فقـد أحب عبد الـرحمن وأسكنه معـه فى القصر وأشرف على تربيتـه وقدمه على سائر أبنائه ، ولم يكن أحـد من الباقين من أبناء عبد الله يظن أن العرش يمكن أن يصير إلى عبد الرحمن فسكتـوا عنه ، وكان هو من جانبه شـابًّا ذكياً بعيد النظر فكـان يقوم بـالوساطـة بين الأمراء ورجـال الدولـة وجده العنيف البخيل ، فأحبه الناس ووسطوه فى حاجاتهم فنشأ محبوباً من الجميع مقرباً إلى جده . فلما تـوفى الجد ، أجمع أهل القصر على مبـايعته ، ولم يختلـف عليه أحـد ، لأن أحـوال الإدارة كانت من السوء بحيث لم يكن فيها مطمع لأحد . وهكذا أصبح عبد الرحمن ابن محمد المعـروف بالثالث أو النـاصر أمير قرطبة دون صعوبـة ، فى ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م ، وبدأ فى تاريخ الأندلس العصر الذهبى وهو عصر الازدهار الأكبر .